سلطان

الصوفية

بين الحق والباطل

بقلم/ حاتم إبراهيم سلامة

مقدمة

حينما انطلق قلمي في بعض المقالات بالعدوان على مظاهر الشرك والخطأ، التي تظهر بها بعض طوائف الصوفية، ظن بعض أتباعها من الشباب الصاعد، الذين ينقصهم كثير من العلم والفهم، أنني من أتباع التيارات السلفية المتشددة، التي تحارب فكرتها وطريقتها، وتبغض طريق العارفين به، وتهيل التراب والغبار على كل التصوف حلوه ومره، واتخذوني عدوًا يناطحونه، وخصما يناجزونه، ويعلم الله أني لم أكن يوما من الأيام بهذا التصور الأخرق، ولا من دعاته وأحزابه المتشنجون، فالتصوف علم أصيل، وكيان كبير، وطريق يعج بالسادة من الأولياء وأهل المعرفة، وقد أليت على نفسي حبا لهذا الطريق وأتباعه، أن أعيد إليه نقاءه، وأدافع عنه ضد أدعيائه، وأطهره مما علق به من الشبهات والزيوف والسلوكيات، التي تتبرأ منها الحقيقة الصوفية.

فبيوتنا هي معاقل الصوفية، ومن أعمامي من كان من شيوخ طرقها ورموز مريديها، بل كان شيخ مشايخ الطرق الصوفية حينما يزور قريتنا، لا ينزل إلا في دارنا، وهي أحداث مثبوتة باللقطات والصور والمرويات، وحينما نتكلم عن الصوفية والتصوف، نتكلم عن علم ووعي وفقه كبير، فقد درسنا مادتها في كلية أصول الدين، على يد الشيوخ الراسخين في العلم من أساتذة العقيدة، وقرأنا فيها كتبًا كثيرة لم يوفق إلى قراءتها صبية ينتقدوننا اليوم، لا يتقنون في الحديث عنها غير القص واللصق من ثنايا الباحث الفسيح (جوجل)، لكننا نعذرهم ونعذر حماس شبابهم، فهم لا يعرفون عنا شيئا، ولا يدرون طبيعة وغاية من يحاورون.

وقوم آخرون قد يشفقون علينا من هذا الكلام، ويستنكرون كوننا ننسب أنفسنا للصوفية، وهم المتشددون الذين يرفضون التصوف كله صحيحه بسقيمه، جملته وتفصيله، ويرونه كله بدعة محدثة عن هدي النبوة، والحق أن هؤلاء أبعد ما يكونون عن هدي وطريق علماء السلف،

الذين قدروا هذا الجانب، وتعاملوا معه بتصور واعي حصيف، فمدحوا من الصوفية من يستحق المدح، وذموا منهم من يستحق الذم والقدح، أي أنهم كانوا قمة في الإنصاف والعدل، وعلى طريقهم نقتدي وبأسلوبهم نسير ونحكم.. ألا إن التصوف باب عظيم من أبواب الإصلاح، والصوفي الحق هو أعظم جنود الإسلام، حينما يهب لنصرة الحق على الباطل، والصمود في وجه الفساد والطغيان، ذلك لأنه صاحب نفس ربانية؛ لا تسيطر عليه الأهواء والشهوات، ومعركته مع الباطل؛ لا يعيرها خوفاً أو هماً؛ لأنه انتصر في معركة أقوى منها وهي معركته مع النفس.

إن سيطرة التيار البدعي المتخاذل على الحياة الصوفية، أفسد حياة المسلمين ونشر البدعة والخرافة والضلال، وشوه الطريق وتاريخه؛ وحرم الأمة من خيره، لأنه صار رمزاً للبلاهة وصورة للمجاذيب.. إن مؤامرة كبرى تحاك ضد التصوف الإسلامي؛ لإخراجه من حقيقته وطبيعته؛ التي ألفت الجهاد؛ّ المجاهدين.

والدعاة اليوم مطالبون بكشف الزيف وإظهار الحق، ومحاربة التيار البدعي المخرف، وإعلان البراءة منه، لأنه ليس من الصوفية، وليست الصوفية منه.. التراث الصوفي المتراكم لابد لأبناء الصحوة أن يتناولوه نظراً وتأملاً، ويدرسوا سير رجاله وأبطاله المغاوير، حتى يجلوا الحقيقة الناصعة البريئة الطاهرة.

حاتم إبراهيم سلامة

سنجرج- منوف

01030631515

التصوف والصوفية

يقول ابن خلدون عن أصل التصوف: " إنه العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة"[1]

ويعرف رويم البغدادي التصوف بقوله: "التصوف مبني على خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل، وترك الغرض والاختيار"

وقال الكرخي: "التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق"

وقال الجنيد: "أن تكون مع الله بلا علاقة"

وقال ذو النون المصري: "أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء"

وقيل للحصري: "من الصوفي عندك...؟ فقال: الذي لا تقله الأرض ولا تظلله السماء[2]."

ويرجع انتشاره وذيوعه ونشأته حينما دخل الإسلام بلاد الفرس والروم والهنود، ففشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني، مما أحدث ردة فعل ظاهرة في انقباض كثيرين عن الدنيا بقوة، فراج اسم زاهد وعابد، وانقطع معتنقو هذا التيار للعبادة وسلكوا طريق الزهد بطرق ووسائل تخلقوا بها.. إلى أن نما وصار طريقًا دينيًا وعلمًا شرعيًا تمثله تيارات وقطاعات عريضة وكبيرة في مختلف بلاد الاسلام.. واختلفت مسمياتهم ووصفهم، فسموا بالغرباء والسياحين والنوراني والمقربين وغيرها من الأسماء.. ولقد تعددت الآراء في أصل تسمية (الصوفية) وتشعبت الطرق في معرفة المصدر الذي نبع منه هذا الاسم فقيل: إنه نسبة لأهل الصفة وقيل:

[1] - مقدمة ابن خلدون
[2]- ضحى الإسلام لأحمد أمين

نسبة لارتداء الصوف وقيل: من الصِّفة أي الاتصاف بمحاسن الأخلاق، وقيل: إنه من الصوفة، لأن الصوفي مع الله كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى، أو أنه من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله؛ وتسابقهم في سائر الطاعات، وقيل: إنه من الصفاء، فلفظة "صوفي" على وزن "عوفي"، أي: عافاه الله فعوفي، وقال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقاً من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتىً صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي

إلى غير ذلك من التسميات العديدة المختلفة التي لا يتسع المقام لذكرها.

ومما لا شك فيه أن التصوف قام ابتداء على الإسلام، وكان القرآن والسنة هما معينه ومصدر انطلاقه، وحدث بعد ذلك أن دخل إلى التصوف منتسبون غير عرب حملوا معهم تخيلات غريبة ورياضات شاذة واعتقادات متفرقة، أصبحت فيما بعد من صور التصوف وسماته.

فالزهد مثلا أصل إسلامي لكن ما يشاع فيه من وسائل وطرق فيها مبالغة لا يقرها الاسلام، أو لم ينص عليها الاسلام الذي روح عن المسلمين، ولم يدع إلى قهر النفس وكبت الروح، فالإيغال في التبتل واعتزال العالم والانقطاع عن الزواج والتناسل والتقشف العنيف من أمور الرهبان وطرائق النصرانية.

ثم كان الاتصال بالعقل والفلسفات اليونانية التي جنح إليها فريق من المتصوفة ووجدوا فيها تعبيرا عما يعتريهم من أحوال في أقوال أفلاطون وفيثاغورث وما تلمح إليه من رياضة النفس وصلتها بمعرفة الله والنظر إلى الفيض والاشراق والمعرفة والسكر.. كما كانت فكرة تناسخ

الأرواح مأخوذة عن التصوف الهندي القائل بالتقمص في الاجساد وانتقال الارواح من شخص لأخر.

أما مسألة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وهي من البدع والتجاوزات الشرعية التي لا يقبلها الإسلام وتعارض عقيدة التوحيد، فقد جاءت من البراهمة في الهند، وكذلك كان هناك اتصال بالتصوف الصيني وما تناوله حكماءه من الحكمة والأخلاق وفلسفة الحياة.

ومن خلال هذا نعرف أن التصوف كما قيل: كان كالإسفنجة التي قبلت كل الأفكار، وامتصت كل الفلسفات والمذاهب الغريبة عن أرض العرب والمسلمين، وكان لها تأثيرها على عقول وأحوال كثير من المتصوفة، خاصة المتأخرين منهم، بل كان الدافع في كثير من شططهم الذي يعد غريبا عن المحيط القيمي الاسلامي.

والتصوف تجربة روحية وحال نفسي يعتمل في ذات المتصوف، لكنه في صورته الصحيحة في الاسلام على الخصوص مرتبط بالعلم ومقيد بالشرع، وأي سالك له لابد أن يكون على حذر، فهو طريق وعر يغري بكثير من الانحراف، وإذا لم يكن الصوفي على دراية بالشريعة متحصنا بعلمها، اجتذبته كثير من طرق الضلال والبدع والهوى، فيأتي بما لم يقره الإسلام.

وعلى هذا نرى من الصوفية متسنن متبع، ومنهم ضال مبتدع، ومنهم ملتزم بالشرع ومنهم نزاعون إلى الفلسفات الغريبة عن مفاهيم التوحيد.. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.. "وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلا، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره"[1].. وفي المقابل ظهر كثير من مشايخ التصوف ورواده من أنكروا كل هذه الموبقات والانحرافات وأعلنوا صورة التصوف الحق

[1] - راجع التوصف بين مادحيه وناقديه. د- يوسف القرضاوي

التي لا تنفصم أبدا عن الشريعة.. فها هو الجنيد بن محمد سيد الطائفة يقول: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال: "من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة."

وقال أبو حفص: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال.

وقال أبو سليمان الداراني: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة.

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

وقد اختلف علماء الأمة حول الصوفية التي صار لها أتباع ومريدون وأعداد كبيرة في كل مكان وزمان، فترى هناك من كفَّرهم، ومنهم من بدَّعهم وفسَّقهم، وفريق نصرهم وسار معهم، وآخرون ليسوا منهم لكنهم أنصفوهم وقالوا فيهم بأن لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

والفريق الذي ينكر عليهم يرى أنهم من أسباب ضعف الأمة وهوانها؛ لأنهم كانوا سببا في إفساد عقائد المسلمين وابتداع ما ليس من الدين، كغلوهم في الصالحين والأولياء ونظرتهم لمقام النبي صلى الله عليه وسلم فيحلون عليه من صفات الألوهية، حتى قال أحدهم (لولاه ما كان أرضٌ ولا أفقٌ... ولا زمانٌ ولا خلقٌ ولا جبلُ) وتقديسهم لشيوخهم ورفع التكاليف عنهم حتى صاروا هم المرجع في الخلاف والنزاع من دون الله، وحتى شاع بينهم: (الواجب على التلميذ أمام الشيخ أن يكون كالميت بين يدي الغاسل)..

"ويأخذون عليهم أيضًا انزواءهم وعزلتهم ورهبانيتهم التي ابتدعوها، وقد تولَّد عن ذلك التماسهم الفقر والتسول، ولباسهم الخشن والمقطع، والكسل والتواكل والقعود عن طلب الرزق.. ويعيبون عليهم الجهل وقلة العلم؛ ما دعاهم إلى عبادة الأضرحة والمشاهد وما يستتبعها من الدعاء والاستغاثة والنذر والذبح والطواف لغير الله. وهم على هذه الحال فقد فشت فيهم السلبية وامتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولذا استغلهم المحتل لترسيخ أقدامه، واستخدمهم المستبدون لتحليل مظالمهم وطغيانهم وفسادهم.

أما الذين أنصفوهم فقالوا: إنهم طرائق شتى فلا تصح المساواة بينهم؛ إذ فيهم القريب من الكتاب والسنة ومنهم البعيد عنهما، وأن لهم جوانب مشرقة مثل الطاعة وحب الناس وعلاج عيوب النفس وترقيق القلوب، وإن كان يؤخذ عليهم عدم الموازنة بين مطالب الروح ومطالب الجسد."[1]

وممن أنصفهم الإمام «ابن تيمية»، حيث قال: (والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرَّب، بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومنهم ظالم لنفسه عاص لربه)[2] ومن العجيب أنهم مع هذا لا يحملون كراهية لأحد كما يحملونها للإمام ابن تيمية.

وسئل العالم الأصولي الفقيه، الأستاذ المرحوم «الدكتور محمد سعاد جلال» عن رأيه في التصوف فأجاب بالآتي: «إن رأي علماء الدين في هذه المسألة جاهز وهو أن التصوف الحقيقي، الذي كان عليه سلف الأمة، خصوصًا في أواخر القرن الأول والثاني، قبل أن يدخل

[1] - من مقال للأستاذ عامر شماخ بعنوان حقيقة الصوفية
[2] - مجموع الفتاوى

عليه المخالطات الهندية والشوائب المجوسية، والمسيحية، التي دخلت على أفكار المسلمين مع دخول الفلسفات الأجنبية إليهم، كاليونانية، وغيرها».

نقول: « إن هذا التصوف الحقيقي، الذي خلا من هذه الأوضار، كان محض العمل بكتاب الله وسنة رسوله، مع الأخذ بمزيد من الزهد في الدنيا، والإعراض عن شهواتها، وفزع النفس عن الخضوع للذاتها، وتطهيرها من الرعونات البشرية، كان هذا السلوك المثالي في العلاقة مع الله هو ما يسمى «التصوف» ثم ابتدعت بعد ذلك أنماط خبيثة من العقيدة والعمل، سميت بالتصوف، كوحدة الوجود، التي قال بها بعضهم، واقترن بها عمليات الطبل والزمر، وكل ذلك باطل وبدعة وإلحاد، وخروج عن منهج الإسلام.. وما يرى الآن من الطبل والزمر، وخلط ذلك بالمدائح النبوية، فهو امتداد لتلك الضلالات والجرائم، التي ظهرت في القرن الثالث، وتعاظمت في القرن السادس، فهي حرام قطعًا، ويجب العمل على إزالتها، والله المستعان».[1]

أما مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في العصر الحديث «حسن البنا»، وقد التحق وهو في سن صغيرة (14 سنة) بالطريقة (الحصافية) الصوفية وبقي فيها لمدة، كان له كلام مهم ونظرة دقيقة مغايرة عن توجهات عصره من التيارات السلفية التي ناصبت الصوفية العداء حيث يقول: (ولا شك أن التصوف والطرق كانت أكبر العوامل في نشر الإسلام في كثير من البلدان وإيصاله إلى جهات نائية ما كان ليصل إليها إلا على يد هؤلاء الدعاة، كما حدث ويحدث في بلدان إفريقيا وصحاريها ووسطها، وفي كثير من جهات آسيا كذلك. ولا شك أن الأخذ بقواعد التصوف من ناحية التربية والسلوك له الأثر القوى في النفوس والقلوب، ولكلام

[1] - أبجدية التصوف الإسلامي

الصوفية في هذا الباب صولة ليست لكلام غيرهم من الناس.. ولكن هذا الخلط أفسد كثيرًا من هذه الفوائد وقضى عليها).

ويرى «البنا» أنه يمكن الاستفادة من تلك الطاقات الهائلة وتقويم المعوج منها، وهذه مسئولية الدعاة الواعين، فيقول رحمه الله: (ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير في إصلاح هذه الطوائف من الناس، وإصلاحهم سهل ميسور، وعندهم الاستعداد الكامل له، ولعلهم أقرب الناس إليه لو وُجهوا نحوه توجيهًا صحيحًا، وذلك لا يستلزم أكثر من أن يتفرغ نفرٌ من العلماء الصالحين العاملين والوعاظ الصادقين المخلصين لدراسة هذه المجتمعات، والإفادة من الثروة العلمية، وتخليصها مما علق بها، وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة).

وفي تعريفه لدعوته يقول: إنها (دعوة سلفية، طريقة سنية، حقيقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة علمية وثقافية، شركة اقتصادية، فكرة اجتماعية)، وفي شرح «حقيقة صوفية» يقول: (إذ يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، وسلامة الصدر، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والأُخوة فيه سبحانه). وهذا كله ومن فهم حسن البنا ما يؤكد نظرته إيجابية للتصوف وأنه غير مصادر لوجوده وأنه عمل رائع لو توفر لأتباعه الفهم الذي يسير بهم في المسار الصحيح والتوجه السليم.

ليسوا سواء

ما زال بعضنا يجهل حقيقة بعض، وتلك آفة خطيرة، خاصة إذا كنا ممن يسارع إلى الحكم العجول، والتصديق بالشبهة، وتكوين الانطباع الأول، مستندين إلى المظاهر والإشاعات والسلوكيات الشاذة، كنا قديما نسمع من يتهم الإخوان المسلمين بأنهم قتلة السادات، ونسمع من ينعت التبليغ والدعوة بأهل التشدد، ويقرن بين السلفيين والتكفيريين، ومن يرى كل صاحب لحية إرهابي متطرف.!

كان هناك خلط كبير حول تمييز وفهم جماعات التيار الديني، التي صار لها تأثيرها القوي في المجتمع، ولا يمكن تجاهلها أو التغاضي عن فاعليتها على أرض الواقع.!

والقول بأن كل هذه الجماعات، خاصة المعتدلة منها على الزيف والضلالة والبدعة، ه قول جاهل، ولابد أن يُقابل بالرفض والإعراض والعودة إلى منابع الدين الأصيلة، فهي كما قيل: ظاهرة صحية، وتحالفات حركية، من شأنها أن تسهم في مد روح الدعوة، واتساع رقعة التدين، وإشاعة مناخ الالتزام، عبر صوره المتنوعة التي يُقرها الإسلام، شريطة أن تتسم بالوعي الكامل، فتسعى إلى التكامل والتعاضد لا إلى التنافر والتباغض.

وإذا كان المتدينون أو أتباع التيارات الدينية، يعانون من جهل المجتمع بهم والتجني عليهم، وعدم تمييزهم عن بعضهم، فإنهم كذلك يُعانون من شطط بعضهم على بعض، وعدوانهم بعضهم على بعض، فبعض السلفيين يكّفرون الصوفية، والصوفية تنظر إليهم بأنهم متشددون لا يعرفون طريق الله، والجهاديون يعتبرونهم وغيرهم جميعًا، متملصون من العقيدة والدين، وطائفة أخرى ترى الجميع أهل ضلالة بعيدون عن حقيقة الله.

وكانت ومازالت أكبر طائفة تُعاني من التجني عليها ورفضها، سواء من المجتمع والمتدينين، هم الصوفية، وكان لابد لنا أن نقف هنا وقفة بينة، فنُظهر للرافضين أن الصوفية ليسوا جميعًا

على البدع والمحرمات، وليسوا بالسطحية المعهودة التي يقودها الدراويش والبُله، وإنما الصوفية ينتسبون إلى علم أصيل، وروحانية فريدة، انتسب لها أعاظم الأمة، وكبار العباقرة النابهين، ومن ثم إذا جاء ذكر الصوفية، فمن العيب الكبير أن نتجنى على الجميع لمجرد ذكر هذا اللفظ، وأن نوقن تمام اليقين أنه طريق يضم الصالحين والطالحين، والمتبع والمبتدع، ولا يجوز لنا إطلاق الإنكار على عواهنه دون تمييز ببينة وبرهان.!

هل تتصور أخي وهل يتصور ذلك السلفي الذي يُبغض الصوفية، ويتنكر لجميع المنتسبين إليها، أن منها أئمة كبار تمسكوا بالكتاب والسنة، ولم يحيدوا عنهما وقد مدحهم كبار أئمة السلف وأشادوا بهم؟!

كان منهم سيد الطائفة (أبو القاسم الجنيد) صاحب القول الشهير: (علمنا مضبوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدى به)

فما أروع وأجل هذا الكلام، وماذا يقال بعده من كلام، أو كيف يذكر أمامه أي نكران؟!

وهو ما دعا ابن القيم وهو من هو مكانة لدى التيار السلفي وأنصاره، أن يقول في مدارج السالكين: " فرحمة الله على أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه، ما أتبعه لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وما أقفاه لطريقة أصحابه"

وقال عنه أبو نعيم في الحلية: "كان كلامه بالنصوص مربوطًا وبيانه بالأدلة مبسوطًا"

وهذا علم من أعلام التصوف وهو أبو سليمان الدارني يقول:" ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة"

ولابن تيمية رأي قيم في التصوف ورجاله حيث يقول: "وهؤلاء المشايخ الموجودون في هذه الكتب..

-ليس فيهم من هو معروف باعتقاد مذهب الباطنية

- لهم من الكلام في رد البدع الصغار وحفظ الشريعة باطنًا وظاهرًا

- هم أهل الحديث كما كانوا يوصون الإنسان أن يكتب الحديث وإن تصوف

- هؤلاء من أعظم الناس رعاية لما جاءت به الشريعة من الأقوال والأفعال والأعمال ومحافظة على ما دل عليه ظاهرها مع تحقيق باطنها

- وكلامهم موجود في السنة وصنفوا فيها الكتب."[1]

وانظر إلى ما قال الذهبي عن سهل التستري: "من أعيان الشيوخ في زمانه، يعد مع الجنيد وله كلام نافع في التصوف والسنة، يقول سمعت سهل بن عبد الله يقول: من أراد الدنيا والآخرة فليكتب الحديث، فإن فيه منفعة الدنيا والآخرة. قلت -أي الذهبي-: هكذا كان مشايخ الصوفية في حرصهم على الحديث والسنة، لا كمشايخ عصرنا الجهلة البطلة الأكلة الكسلة، وبلغنا أنه أتى إلى أبي داود السجستاني مصنف السنن، فقال: أريد أن تخرج لي لسانك هذا الذي حدثت به أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبله.) فأخرجه له فقبله.

وقال العلامة الشنقيطي: "إن بعض الصوفية على الحق، ولا شك أن منهم ما هو على الطريق المستقيم من العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم."[2]

وأمام هذه النقول الواضحة الصريحة، الواعية الحصيفة، لا يجب أن نتعامل مع طائفة وطريقة ذات عراقة وأصالة، وضاربة في عمق التاريخ الإسلامي، بهذا الجهل وهذا التجني وهذه السطحية وقلة الإنصاف، ولنعلم أن هذا لا يفيد مستقبلنا أبدًا حينما نتهم بعضنا وننعت غيرنا بالجهل ونتخذه عدوًا لدودًا.

[1] - بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية
[2] - أضواء البيان - الشنقيطي - ج ٤

والصوفية تعد من أكثر المذاهب والطرق التي يتفرع عنها ومنها صور متعددة ومتباينة ومختلفة، حتى تكاد تكون دنيا وحدها، فمنها أهل الحق وأهل الجهاد، ومنا المتبع المتسنن، ومنها المبتدع في المفرط الميال للخرافة، ومنها الفلاسفة القائلون بالحلول والاتحاد، ومنها المتمسكون بالكتاب والسنة، ومنها السذج والدراويش أهل الموالد والحضرات الراقصون المتمايلون، ومنها عشاق المصطلحات الغائمة المبهمة، ومنهم العاشقون للطغاة والمسبحون بحمدهم، والدائرون في فلكهم، ومنهم الثائرون الأبطال الأحرار، ومنهم المنبطح الكذوب الدجال.. لكن الحقيقة تفرض نفسها علينا وهي أن ما غلب على الطريق الصوفي جهلته وأدعيائه، حتى ما عدنا نرى إلا قليلا من أصحاب السنة والاتباع، ولكن هذا لا يطلقنا أبدًا في دوامة الإنكار، متحاملين على كل من ينتسب للطريق، حتى ولو كان من المعتدلين القاسطين.

أدعياء لا أولياء

نعلن دائما أننا لا نحارب التصوف ولا نمقته ولا نسخط على أصحابه أو نعاديهم على طول الخط، كما يظن الكثيرون منهم، وكيف نعاديه وهو علم عظيم، ورافد كبير من روافد ثقافتنا الإسلامية وتراثنا الحضاري، بل هو المعنى الممثل للحياة الروحية في الإسلام والصورة المثلى للزهد والشفافية والعفة والقناعة ؟!

فأين الإشكال إذن ومن أين يتسرب هذا الظن العدائي للتصوف وأهله، وهو الذي لا أساس له ؟!

وجب على الصوفية أنفسهم وبادئ ذي بدء، أن يدركوا: أن التصوف ككل شيء في الحياة، فيه الغث والسمين، والصالح والطالح، والصواب والخطأ، وأن التصوف من أكثر الأشياء التي شابها التشويش والتلفيق والتزييف، حتى يزوغ عن حقيقته السامية، ويزج به في عالم

الخرافات والخزعبلات والهرطقات والشطحات، وأمام هذا التداخل الشائك، كان لابد من التفريق في الحياة الصوفية بين الخطأ والصواب.. بين الأدعياء والأصلاء.. بين الجادين فيه واللاعبين به، وكان لابد أن نكرر هذه الجملة ونعيدها على مسامع المنصتين فنقول: (التصوف الحقيقي) والتي نعني بها أن هناك تصوف غير حقيقي وزائف وغير مقبول، وهو الرأي الذي لا يمكن الهروب منه أو التغافل عن حقيقته المُستقرة، بل هو ما فطن إليه كبار الأولياء والعلماء من الصوفية أنفسهم، فيحكي الإمام الشعراني في مقدمة الطبقات تأكيداً كبيراً على هذا المعنى الذي يبرئ التصوف الحقيقي، من كل البدع والشطحات والمحدثات التي أتى بها المبتدعين والمخابيل، حتى يخرجوا بهذا الطريق العظيم عن مساره القويم الصحيح، ليكون رمزا للبلاهة والغفلة والجنون واللاوعي واللامعقول.

لقد صحبت رجلاً منهم ورأيته كلما شاهد مجذوباً أو مجنوناً يتمسح به، ويعتقد فيه الولاية ويسأله أن يدعوا له، والمجنون إنسان مسكين مسلوب الإرادة والعقل ولا يستطيع أن يصل إلى الله سبحانه بدونها، فكيف إذن يكون وليًا مباركاً؟!

وأما هذه النظرة التي أوضحناها، كان لابد لنا من الدفاع عن التصوف الحقيقي، ولفت الجماهير بنوعيه المقبول والمرفوض، والوقوف بكل قوة أمام من يحاولون اختراقه بالبدع والشركيات، التي ما أتى بها أقطاب التصوف أنفسهم، حتى أنك لو تابعت مجلة التصوف الإسلامي، التي تصدرها مشيخة الطرق الصوفية في مصر، لرأيت حالها بريء مما تفعله الطرق ورجالها الذين ينتسبون إليها، حتى كلمة (مدد) التي تشاع على ألسنة المتصوفة ويطلبون بها الغوث من غير الله، كأن يقول أحدهم: مدد يا حسين، أو مدد يا بدوي، تبرأت منها المجلة ورفضها الشيخ محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية في أبجديته عن

التصوف الإسلامي، وقال: المدد لا يكون إلا من الله، مما يجعلك في حيرة لتسأل نفسك أين هؤلاء من هذه الأتباع الضالة الشاردة ؟

لماذا لا يتبعونهم ويؤثرون أهواءهم على الحق؟!

وها قد بانت نظرتنا ووضح مفهومنا، ومن ثم لا يحق لأحد بعدها أن يتهمنا بعداء التصوف وحربه والانتقاص من أهله، لأننا فقط نرفض أدعياءه الذين تفننوا في طمس جلاله، وتحريف آثاره الربانية وثماره الروحانية، وهذا ما يجعلني أوجه الدعوة لكل صوفي صادق ومريد حر، أن يمد اليد ويشارك في موكب التصحيح، ويساهم بعزيمة وإصرار في عملية التنقية والتنقيح، وإن شئت فقل : التطهير حتى يصفو الطريق ويجلو من شين الأدعياء.

ويبدو من خلال التراث الصوفي وحديث أعلامه أن المشكلة قديمة، وأن هذا الطريق يشوبه الأخلاط المختلفة، فمنها الصادق المعبر عنه والواعي لحقيقته، ومنها الدعي المدلس الذي يصير عبئا عليه، وقد أوضح الإمام الغزالي هذا في إحيائه حينما ذكر أصنافهم، فكان مما قال:" المتصوفة، وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق، ففرقة منهم متصوفة أهل الزمان، إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والهيئة، فشاركوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم، وفي ألفاظهم وفي آدابهم وقراءتهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات، مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء، وفي خفض الصوت في الحديث، إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم صوفية، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية.. كل ذلك من أوائل منازل التصوف.

ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية، كيف ولم يحوموا حولها، ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها؟ بل تكالبوا على الحرام والشبهات وأموال السلاطين.

وفرقة أخرى زادت على هؤلاء في الغرور، إذ شق عليهم الاقتداء في بذاذة الثياب والرضى بالدون، وأرادت أن تتظاهر بالتصوف، ولم يجدوا بدًا من التزيي بزيهم، فتركوا الحرير والأبريسم، وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة، والسجادات المصبوغة، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والأبريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا، ونسي أنهم لوثوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة، فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد.

وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود، والوصول إلى القرب، ولا يعرفون هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ."[1]

يصيبني توتر بالغ كلما قابلت شابًا متدينًا أو رجلا ينتسب للتيار الديني، وقد فهم أن من أساسيات انتصاره للإسلام والدفاع عنه، أن يصب على التصوف والصوفية جام غضبه، ويجعلهما في مرمى هجومه ونيرانه.

ولا نعرف هل نجد العذر لهؤلاء المُتهِمين، حين لم يظهر أمامهم وفي بلدانهم إلا هذا النوع البدعي، ومن ثم سيطرت على عقولهم هذه الصورة العدوانية، أم يرجع ذلك لجهلهم وقلة قراءتهم ودراستهم لعلم التصوف وطريقه ورجاله؟!

وها نحن كل يوم وكلما أوغلنا في القراءة والمعرفة والمدارسة، نكتشف رمزًا صوفيًا عاقلا، سخر قلمه ونصحه وفكره لبيان التصوف الحق، ووعظ المبتدعين المخرفين الذين يشوهون الطريق والإنكار الشديد عليهم.

[1] - إحياء علوم الدين

لقد كانت قراءتي مؤخرًا عن الزعيم الثوري عبد الله النديم، والذي تكشّف لي أنه صوفي من أعيان الصوفية، ففي إحدى مقالاته يعرف انتماءاته فيقول: "إنه عبدالله النديم الإدريسي الحسني الأشعري الشافعي الخلوتي الإسكندري" فهو إذن يذكر انتماءه الصوفي وانتسابه إلى الطريقة الخلوتية، قبل ذكر انتمائه للمذهب الشافعي.

لكن انتسابه لهذا التيار الروحي، كان قائما على المرجعية للكتاب والسنة، والالتزام بالتصوف كطريق لتهذيب النفوس والارتقاء بالروح، ورغم إيمانه العميق بأصالة التصوف، لم يفته أن يهاجم المنتسبين إليه ممن يقترفون المنكرات والبدع والخرافات، فيقول في مجلته (الأستاذ): "وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود، واستبدال السنة بالبدعة، وترك الشرع بهوى النفس، والطامة الكبرى دعوى بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة، وإضلاله العامة، بما ينقله إليهم بعض الصوفية مدعيا وصوله إليه من طريق الفتح والإلهام، فقد كثرت النحل والبدع، وسمعنا في أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر، اللهم إلا عند البوذية من المجوس، فإن لهم أقوالا تشبه أقوال القائلين بوحدة الوجود وهم لا يدرون معنى القول بالوحدة"

ثم يعرج فيقول: "فهلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة الشنيعة؟ وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم؟! وما هم إلا في أيدي الشياطين، يلعبون بهم كيف يشاؤون.. إنهم إن تمادوا في بهتانهم وافترائهم على الله ورسوله، اضطررنا لكتابة رسالة في عقيدتهم وفسادها وأوردنا أقوال أهل السنة فيها، وتكفير القائلين بوحدة الوجود."

قال النديم هذا الكلام، فنحن الآن أمام صوفي من الصوفية الحقة المتحققة، ورجلا من رجالها المثقفين الواعين الفاهمين بجلاء حقيقة الطريق، ونصاعة علمه وبراءته من هذا الهراء الذي تقدمه اليوم كثير من الطرق الصوفية، فشوهوا مساره وأفسدوا صورته.

ونحن إذ نهاجم هذه الفئات، فإننا لا نهاجم التصوف، وإنما ندافع عنه ونحاول جلاءه مما علق به من شبهات وأوزار، نحن لسنا أعداء التصوف، ولكننا من حماته الرافضون أن يستقل به هؤلاء الجهال، فيذهبوا بجماله وسمعته وتاريخه وأثره.

أقرر بكل شجاعة: إن الذين ينكرون التصوف جملة، لا يفرقون شيئا عن هؤلاء الذين يقترفون فيه البدع والخرافات، حينما نراهم وهم يهدمون علمًا عظيمًا وتراثًا عريقًا، وطريقًا لا ينادي إلا بالزهد وتزكية النفس وطهارة الروح، وهي جانب عظيم في الإسلام لا ينكره إلا جاهل، وسامح الله بعضهم حينما أدخلوا على الأمة هذا الفهم المعيوب المنقوص، فجعلوا كل كلمة تخالف كلمة سلفي بدعة وضلالة ومنكر عظيم.!

أضرحة وأوهام

العصور الماضية من أيام الفاطميين، رمتنا بكثير من الجهالات التي أفسدت ذوق المصريين الديني، وأكثر هذه الجهالات أنواع من الخرافات والطبائع التي لا تتناسب مع العقيدة السنية، ومن المحزن أن أرباب الطرق الصوفية البدعية، تلقوا هذه الخرافات، وتبنوا مظاهرها، دون التثبت من أصالتها الدينية، أم انتمائها للبدع التي يرفضها الدين.!

ومناخ الدراويش العام في العالم الصوفي، مناخ لا أصل له في العقيدة السنية، وإنما هو نمط ديني شيعي، تلقفه الجهلاء ودمجوه بالتصوف، الذي يعد من أكثر التوجهات قابلية لروح التشيع، إن لم يحكمه علم ويقيده شرع.

ناهيك عن كثرة الأضرحة المنتشرة منذ عهود غابرة، ولا يعلم أحد تاريخها ولا أصول أصحابها، ولا توجد أدنى ولا أقل معلومة تفيد بتاريخ أصحاب كثير من هذه الأضرحة، وفي قريتي بمحافظة المنوفية، ضريح لما يسمى بالشيخ الوروري، يقام له مولد كل عام، وإذا سألت أو بحثت عن أصل هذا الضريح، أو تاريخ صاحبه، فإنك لا تهتدي إلى شيء، لكن يبقى المهم أنه ضريح، ويبدو أن القرى منذ عهود غابرة، كانت تحن لسباق جاراتها من القرى الأخرى، لتمتلك ضريحًا، يصنع لها هالة الولاية، ومركزًا دينيًا، تقام حوله الموالد السنوية التي تثري الحركة الاقتصادية، والانتعاش النفسي لدى الناس في تلك الحقب، وفي الطبقات الكبرى للإمام الشعراني، كنت أقرأ فيه عن بعض الأولياء، فدهشت مما قرأت حينما وجدته يقول: وهو من بلدة الباجور بجوار سرس الليان، والباجور مركز كبير من مراكز محافظة المنوفية، وسرس الليان قرية كبيرة معروفة ومشهورة، وتحولت الآن إلى مدينة، وكانت الدهشة أن هذه البلاد بنفس مسمياتها من زمن الإمام الشعراني الذي مرت عليه مئات السنين.

ومن ثم كان لابد لقريتنا من ولي يرقد جثمانه في ضريح بأرضها، ولا يعرف أحد من هو؟ ولا إلى من ينتمي؟ ولا من أين جاء؟!

وكلي إيمان أن أحدًا لن يهتدي لشيء أبدًا، حتى لو قضى سنين عمره في البحث والتنقيب، لأن الناس في العهود الماضية، ولسيادة الأمية الدينية السنية، وغلبة الهوى الشيعي، لم يكونوا على درجة حصيفة من الحكم على الأولياء الحقيقيين، فلمجرد أن يروا رجلا طيبًا مهلهل الثياب، ذاهل العقل، و يسير حافي القدمين، يسيل لعاب فمه، ويخرف في كلامه، فإن الجباه تنحني له، والأيدي تتمسح به، ويزعم أهل الأهواء أنه من خلص الأولياء.! وإذا مات أقيمت عليه القباب، ودفن في أعلى الأضرحة وصار له مولد معروف يجمع المولعين بالموالد سنويًا.

الفيلسوف الكبير عبد الرحمن بدوي، يروي في مذكراته ما كان في بلدته وهو صغير فيقول:

"كانت لدينا طريقة الشاذلية، يقومون كل أسبوع بحلقات للذكر في هدوء وسكينة، ولكن الهزة الدينية، كانت تقوم حينما يفد إلى القرية، أحد مشايخ الصوفية الوافدين من أماكن نائية، وكان قدوم هؤلاء خصوصًا حينما يقام مولد ولي القرية الشيخ الشرباصي، وكان الشيخ الوافد يلجأ لأعمال الشعبذة إلى التشنج والربط والتشنج، هو إحداث نوع من الشلل الوهمي في جسم شخص، والربط هو إحداث اللعنة عند من يسخط عليه هذا الشخص، ويتم الإيحاء في الأمرين بالتهديد والوعيد بالألفاظ الضخمة، يصرخ بها الشيخ بصوت مروع يثير الرعب في نفس الشخص المطلوب إحداث ذلك التأثير فيه."

ثم يقول: "وكان يطوف بالقرى بعض المشايخ المنتسبين إلى الطريقة الرفاعية، ويتميزون بالإتيان ببعض خوارق العادات، مثل استخراج الثعابين من سقوف البيوت ومن مخابئها في الجدران، وغرز المسلات وفي إبر طويلة ضخمة تستعمل في خياطة الأكياس والزكائب والركائب، في الأصداغ دون أن ينتج عن ذلك سيلان دماء، وغرز سن السيف في الرقبة وركوب الشيخ على كتفي صاحب هذه الرقبة، دون أن ينفذ هذا السيف فيها، وكلها شعوذات مفضوحة كنا ونحن صغار ننبهر لها انبهارا ونستمر في الحديث عنها طوال أسابيع عديدة بعد رحيل الشيخ الجوال."

أما الشيخ الولي صاحب الضريح فيقول بدوي:

"والشيخ الشرباصي هذا أسطورة، ويزعم الناس أن هذا الضريح لولي مجاهد من أهل شرباص، استشهد في الحملة الصليبية السابعة، التي قام بها لويس التاسع عام 1249م فدفن ذراعه في دمياط وجسمه في شرباص، وأهل دمياط لا يقرون بهذه الأسطورة، وتبين لنا فيما بعد أن هذا الضريح، رفات رجل صالح يدعى إبراهيم أبو خليل، عاش في القرن الماضي، ولا شأن له بالحروب الصليبية"

ويطالب بدوي ببحث تاريخي لمعرفة أصول هذا الشيخ، لكنه مهما بحث وفتش، فلن يصل إلى شيء، لأن الأمر كان من دوافع الأهواء والجهالة لا أكثر ولا أقل.!

وهذه الأحوال كلها تدفع المرء دومًا أن يردد السؤال الوارد باستمرار وهو: أين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من هذا الإسلام الغريب والولاية العجيبة.؟!

شيخ متشنج يعلي صوته ويهدد ويرعد كأنه مجنون، ورفات ضريح يزعمون أنه ولي، ولا يعرف أي شيء عن هذه الولاية وتاريخها وكراماتها، فالمهم أن يكون ولي في النهاية، ليكون تنفيسًا لأصحاب الهوى بالموالد وإشاعة البدعة والخرافة.

إنني كعاقل حينما أحتفي بولي وأقدر مقامه من ربه وأشارك في موالده، فلابد أن يكون لي على الأقل معرفة ودراية بطاعة هذا الرجل وجهاده وكراماته، وشيء من تاريخه وأخلاقه، أما أن أتحمس لوهم لا أعرف عنه أي شيء، فإن عقلي يأبى أن أشارك في هذه الخطيئة، وقبل أن يتعصب الملتهبون للفظ الخطيئة، فإنني أقصد الخطيئة العقلية.!

حينما تبصر قرانا الريفية لو قدر لك زيارتها، وأردت أن تتعرف على الطرق الصوفية فيها، فإني أنصحك أن تبحث كذلك وتتعرف على أبناء شيوخها، فهم لا يتبعون الطريق كآبائهم، وأكثرهم غير ملتزم دينيًا، لكنك لو قدر لك وأثرت مع أحدهم نقاشًا حول التصوف، أو أنكرت منه بعض البدع التي يرتكبها آباؤهم باسمه، فإنك ترى دفاعا مستميتا، وزودا عنيفا، إذ يرميك بالجهل وانعدام العلم والمعرفة، بل ترى أمامك وحشا يريد أن يأكلك، وكأنك مسست شرفه، واعتديت على كرامته.

وهكذا ينتقل الإيمان بالتصوف لدى الكثيرين، بالعصبية والتحيز واتباع الآباء، وهكذا تدخل الخرافة من الكبار إلى الصغار، فيتربوا عليها وتنموا عقولهم على الإيمان بالخرافة والبدعة والهراء.

ماذا بك الآن لو أخذتك في رحلة لنتعرف فيها سويا على رجل غُرر به وهو صغير، وأُلبس عليه، ليتشبع إيمانه بالخرافات، ويصير الهذيان بها غاية الوصول ومعلم الإيمان، قدر لهذا الرجل فيما بعد أن ينجوا من لوثة الصوفية الضالة، ويفيق إلى الحق ويصير من أئمة الدعوة. وهو الشيخ عبد الرحمن الوكيل رحمه الله، صاحب الكتاب الشهير (هذه هي الصوفية) والملقب بهادم الطواغيت.

كان يقول: "ما زلت أتذكر وأنا طالب في معهد طنطا الديني، ذلك الشيخ يقسم لنا وعيناه مخضلتان بالدموع، ونبرات صوته أصداء عميقة بعيدة الغور من الشجو الولهان، والحنين الهائم، والحرمان الجريح، يُقسم لنا أن في ضريح عبد العال، المجاور لضريح البدوي، شعرة من رأس الرسول، وأنها معين خير، وفيض بركة ويمن، ومطاف آمال ومهوى رجاء، وأذكر أنني حينما سمعت حديثه، يؤكده بقسم غليظ، شعرت بقلبي وكأنما يود أن ينشق عنه الصدر، ليهفوا في صبابته الملهوفة، إلى معبد الشعرة يقبلها، بل شعرت كأنما حملت الملائكة إلي بشرى الخلود.

وما زلت أذكر أيضا أنني سألت الشيخ ليطمئن قلبي على هذا الأمل الحلو الساحر الفتنة، عما جعلهم يوقنون بنسبة هذه الشعرة إلى رأس النبي الأعظم، فأجاب تولاه الله بما قدم: لقد وضعناها في زجاجة، وأقمنا حولها حلقة ذكر وإنشاد، وإذا بالشعرة تذكر مع الذاكرين على دفيف الدفوف، وأنات النايات، والنغم المطرب، المرقص من الأناشيد.

وأذكر أنني آمنت بهذه الأسطورة، كأنما هي من الله برهان ساطع، وأذكر أن الشيخ تداركنا حتى يحكم القيد، بحجة أخرى، فزعم أنهم وضعوا الشعرة تحت الشمس، فلم يجدوا لها ظلا، وكان هذا الوهم الوثني الجديد، حجة عندي تدحض كل ريبة.

وأذكر أن خرافة الشيخ هذه، غمرتني بنشوة سكر، خِلت فيها أنني أرى الجنة، أو أنني صحابي يتلو عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وحي الله، فكنت أهفوا إلى هيكل الشعرة خاشع الطرف، ريان القلب، أصلي لها بنجاوا الحب العابد، وألثم خشب هيكلها، وحجره، في شغف ثائر الأشواق، عربيد التلهف، وأنهنه بالأرواح العطرية.

وأذكر أنني كنت أطوف حول صنم البدوي، حتى إذا مثلت أمام الكوة الصغيرة، في وثنه النحاسي البراق، أنفذت منها يدي في رعشة التقديس، حتى ألمس ستر القبر، ثم أخرجها رويدا رويدا، في حرج وحذر بالغين، وقد ضممت قبضتيها علي.. على ماذا؟ كنت أوقن أنني أضمهما على بركات سماوية تفيض من روح الله على القبر.

وأذكرك بذلك الدوي ترجف منه الأرض، وترتعد جدر المعهد حين كانت توزع أسئلة اختبار آخر العام الدراسي.

أتدري ماذا كان يحدث؟ تهب هذه الآلاف المضطربة من الطلبة، رافعة أكفها في ضراعة ناعقة بما لا يسمع، ولا يبصر، حتى ليبح صوتها، وتتمزق حناجرها إذ تنعق ضارعة: يا سيد! ويا ويل السمع من طول ياء النداء!!كانت تطول، وتطول، حتى ليخيل إليك أنها دخان مارد يحترق.

وهكذا كان الطلبة يتعلمون ويعتقدون، وينشؤون، بل هكذا كانوا يستغيثون ويحلفون ويتبركون، شبوا على ذلك وصار فيهم عقيدة، خرافات وعقائد لا تمت للدين بصلة، تمس شغاف قلوبهم، وتأسر أرواحهم وهي باطل في باطل، يروج له ويربي عله النشأ شيوخ جهلة ومعلمون مخرفون، يتخذون دينهم هزوا وهزلا.!

صرخة في آذانهم

سألني أحد المحبين يومًا وقد قرأ لي مقالا أحاور فيه أحدهم، وعقب على ما ذكرته فيه من قولي: إنني صوفي.

فجاء سؤاله الاستنكاري: هل أنت صوفي؟

لم يكن سؤاله مجرد سؤال عابر، بقدر ما كان سؤالا يحمل الدهشة و المفاجأة، وإن شئت فقل يحمل تهمة كبيرة، وخلالا أظهرته أفكاري في ظنه، ولصديقنا الكريم كل العذر في دهشته واستنكاره، لما يعلم أو يرى من شيوع الفساد في هذا الطريق، وضلال أكثر المنتسبين إليه.

والحق أن صديقنا ظن بهذا الاعتراف، أنني من هؤلاء الصوفية البدعية، أو أنني أنسب نفسي لبعض طوائفها الضالة، التي يشهدها الناس، ويعرفها الجميع في كل مكان.

وهذا التساؤل من صديقي يحتاج لبعض الشرح، لا لأتبرأ فيه من الكلمة أو النسبة أو الاعتراف، أو ما ظنه هو أنه تهمة، ولكن لأستجلي معه بعض المفاهيم، فأنا صوفي وهو صوفي، وكل مسلم سلك مسالك الروحانية والتعبد، وارتقى في مقامات القرب والعبودية، هو صوفي متصوف، والفرق الوحيد هو المسمى فقط.

واستنكار هذا الاصطلاح أو الاعتراف به، لا ينفي صفة الروحانية التي اتسمت بها الصوفية، أو اتسم بها غيرهم، غير أنهم لا يطلقون على أنفسهم هذا اللفظ أو يستحسنونه.

فالإشكال إذن في اللفظ فقط، وقد قال العلماء: لا مشاحة في الاصطلاح.

والصوفية الأوائل كانوا على نهج الكتاب والسنة والاتباع القويم، وشاعت عنهم هذه التسمية لأسباب عدة قد اختلف في أمرها، لكن أهم ما يعنينا في أمرهم، أنهم كانوا على مسار الاتباع ولم يبتدعوا في دين الله.

ومن ثم يكون مصطلح التصوف والصوفية، مجرد تسمية لا ترمي إلى شيء من البدع والخرافة التي أحدثتها بعض الطرق التي تتسمى به.

الأمر تمامًا كهذا المسلم الذي ينتسب للإسلام، ثم يفرط في التزامه به، أو يبتدع فيه، فهل يعني هذا أن الإسلام خطأ؟

أبدًا ولكنه هو صاحب الخطأ.

وكذلك كل متصوف أحدث في الدين، لا يعنى أن التصوف خطأ، بل هذا المحدث هو الذي ظلم التصوف والصوفية، بما أحدثه وأبدعه واختلقه.

ولله در أحد الأئمة حينما قال يوما:

دعوتنا دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية.

أي أنه جمع كل هذه الأوصاف في نطاق الإسلام، ولا حرج فيها ولا تضاد بينها، فجميعها يهدف إلى شيء واحد وغاية واحدة، وهو الإسلام الحق، بعيدًا عن البدع والمحدثات والمخالفات.

إن أزمة كثير من المتدينين، أنهم سمحوا لأنفسهم أن يطغى عليهم مفهوم التصوف الطرقي المعاصر، بما أحدثت فيه أغلب طرقه والمنتسبين إليه من البدع، طغى عليهم هذا المفهوم، وأزال من معتقداتهم وأفهامهم حقيقة التصوف السني الملتزم، الذي مثله الصوفية الأوائل، وبعض الطرق المعاصرة التي لم تتخل عن العلم والاتباع الصحيح للكتاب والسنة.

وقد ذكرت فيما سبق أن من يقرأ مجلة التصوف الإسلامي ومقالاتها العلمية، التي تصدرها مشيخة الطرق الصوفية في مصر، يرى القمة في الفهم والوعي والرشد، والالتزام الكامل

بمعاني الإسلام وقيمه، والاتباع الصحيح للكتاب والسنة، ورفض المغالاة وانتقاد البدع التي عليها أغلب الطرق المنتسبة إليه، إنها تمثل صرخة مدوية في آذانهم: أن استقيموا رحمكم الله.

ومن عجب أنك لو أتيت بهذه المجلة وعرضتها على صوفي طرقي من أصحاب البدع والمخالفات، وأخفيت عنه الغلاف الذي يحمل العنوان، وقلت له: اقرأ، لرأيته يتنكر لكل هذه الصفحات، واعتقد من فوره أن من كتبها خصوم الصوفية والكارهين لهم.

وليس في الأمر كره أو بغض، بقدر ما هو احتكام للحق والصواب في الدين.

يتضح من خلال هذا كله، أن كلمة صوفي ليست عيبًا ولا ضلالا، ولا تقع في دائرة المنكر، ولكنها فقط تحتاج لبعض الفهم والإدراك، حتى يكون حكمنا دقيقًا صائبًا بعيدًا عن التهمة والجور.

إنها مجرد صفة وتسمية، شاعت وأعلنت والتصقت بالصوفية الأوائل ومن تبعهم، مجرد تسمية كأي تسمية، أشيعت وانتشرت في المناخ والتاريخ الإسلامي، كالأحناف والشافعية والحنابلة والمالكية، ولم نسمع أحدًا أبدا من ينكرها أو يرفضها، لأنها كانت إحياءً لمعالم الكتاب والسنة.

حتى السلفية ذاتها التي يهاجم أصحابها التصوف، نجدها مجرد تسمية، لم تعرف في عهد النبوة، ولم يتصف بها حتى من جاء بعد القرون الأولى الخيرة بأزمان وعقود، فإذا كان هناك من ينكر مصطلح الصوفية، فلينكر مصطلح السلفية، ومعها أسماء المذاهب الفقهية، بنفس الحجة والسبب.

الأمر إذن بعيد كل البعد عن المسميات، وإنما هو قرين الحال، هل أنت متبع أم مبتدع؟!

والجواب وحده، هو من يحدد مسار التهمة والنكران.

الخرافة عدونا الحقيقي

الجهل والخرافة كانتا من أبرز العوامل في انهيار الأمم، وضياع شعوبها وسوء مصائرها.

بل كانتا العامل الأكبر في نجاح المستعمرين وتغذية وجودهم، وضمان بقائهم قاهرين غالبين، لمجتمعات تفتقد الوعي اللازم لعملية التحرر.

لم يكن أبدا لمجتمع تسوده لوثة الخرافة، وأحجبة الجهل، أن يكون مجتمعًا حرًا كريمًا، ومن ثم كان التعليم خطرًا كبيرًا يحول المستعمرون بينه وبين الأمم التي قبضوا على زمام مصائرها.!

بل عليهم إذا أرادوا تعزيز وجودهم ألا يكلفوا أنفسهم مشقة الجهد، فلا يغدقوا بأموالهم على هذه الشعوب حتى ترضى عنهم، ولا يلجؤون للسلاح والقتل حتى يخيفوهم، إذ يكفي فقط أن تدعم الخرافة وتنشر الجهل، وتروي منابته في كل مكان، لينوب عنهم في كثير مما يريدون من غايات، ويكون الركيزة الكبرى في البقاء والغلب والاستعباد.

انظر ماذا حدث في الهند أيام الاحتلال البريطاني، وهو الشاهد القوي الذي يقف بك على ذكاء المستعمرين وإدراكهم لتلك الحقيقة المرة.!

ذُكر أن السفير البريطاني كان برفقة القنصل البريطاني يسيران بسيارتهما في شوارع دلهي، وفجأة شاهدا شابًا جامعيًا هندوسيًا يركل بقرة.! وبسرعة أمر السفير البريطاني سائقه أن يقف بسرعة، ونزل من السيارة، ودفع الشاب الهندي عن البقرة، وأخذ يمسح وجهه بها، ويطلب منها الصفح والمغفرة، حدث هذا وسط دهشة المارين حيث لم يكتف بهذا، فإذا به يغتسل ببولها ويسجد لها، فسجد معه الناس، وقاموا إلى الشاب الهندي وأوسعوه ضربًا!

وعندما عاد إلى السيارة سأله القنصل: سعادة السفير هل تعبد البقر حقا؟! إني لا أصدق ما أراه بعيني؟!

فقال له السفير والبول يقطر من وجهه وشعره: ركلة الشاب للبقرة صحوة، وهدم لعقيدة الهنود التي نريدها، لو سمحنا لهم بركل البقر، فلن يتأخر الوقت قبل أن يركلوننا نحن.!

الجهل يا عزيزي القنصل، هو أمضى أسلحتنا، وعلى هذا الشعب أن يبقى جاهلا.!

لقد كانت الهندوسية إذن آفة الهنود في إنتاج الخرافة وشيوع الجهالة، ولكن ماذا عن مجتمعاتنا التي لا تعرف أرضها شيئًا من الهندوسية؟

نعم لقد كانت هناك في مجتمعاتنا ما يضاهي هذه الهندوسية التي تشع بالجهل، فقد كانت هناك حركات صوفية، يقودها دراويش مغيبون، صاروا ألعوبة في يد المستعمر المحتل الذي أيدهم، ونمى وجودهم، وشجع طرقهم، ودعم موالدهم وحضر محافلهم، حتى يدوم رتوعهم في جهالتهم، وتسود الخرافة في أوطانهم، وينشغل المجتمع ويغيب عن قضايا أمته ومعاركها التحررية.

يقول الدكتور المسيري: «مما له دلالته أن العالم الغربي الذي يحارب الإسلام، يشجع الحركات الصوفية، ومن أكثر الكتب انتشارًا الآن في الغرب مؤلفات محيي الدين ابن عربي، وأشعار جلال الدين الرومي، وقد أوصت لجنة الكونغرس الخاصة بالحريات الدينية، بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية؛ فالزهد في الدنيا والانصراف عنها وعن عالم السياسة يضعف ولا شك صلابة مقاومة الاستعمار الغربي»[1]

ويزعم المستشرق الألماني شتيفان رايشموت أن «مستقبل العالم الإسلامي سيكون حتماً للتيار الصوفي».

[1] -الإسلام والغرب لعبد الوهاب المسيري

ويقول دانيال بايبس: «إن الغرب يسعى إلى دعم التصوف الإسلامي لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية، وفق ضوابط فصل الدين عن الحياة، وإقصائه نهائياً عن قضايا السياسة والاقتصاد، وبالطريقة نفسها التي استخدمت في تهميش المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة»

وفي صيف عام 2004 أصدرت مؤسسة «راند» تقريراً تضمّن توجيه الولايات المتحدة الأمريكية بـ «تشجيع انتشار وقبول الصوفية في المجتمعات الإسلامية».

وقد كتب الأستاذ فهمي هويدي مقالاً يعلق فيه على هذا التقرير، ومما قال: «إن التقرير لا يخفي دعوة صريحة إلى تشجيع التصوف، وهو ما يعد نوعاً من الدعوة إلى التعلق بما يمكن أن نسميه الإسلام الانسحابي الذي يقلص التدين في دائرة روحية لا يتجاوز حدودها، فهو يتحدث صراحة عن أهمية تعزيز الصوفية وتشجيع البلدان ذات التقاليد الصوفية القوية، على التركيز على ذلك الجانب من تاريخها، وعلى إدخاله ضمن مناهجها الدراسية، بل يلح على ذلك في عبارة أقرب إلى الأمر تقول: لا بد من توجيه قدر أكبر من الانتباه إلى الإسلام الصوفي»[1]

وفي 24 أكتوبر 2003م استضاف مركز نيكسون مؤتمر برنامج الأمن الدولي في واشنطن، لاستكشاف مدى دور الصوفية فيما يتعلق بأهداف السياسة الخارجية الأمريكية، وقد عقد المؤتمر في ثلاث جلسات، واحدة منها سرية.

الجلسة الأولى: حول الصوفية: التاريخ، الفلسفة، الجماعات.

[1] -«جريدة الأهرام» تاريخ (2004/8/10) عدد (42981).

الجلسة الثانية: حول الصوفية في أوروبا وآسيا[1] ويذكر المستشرق برنارد لويس أن اهتمامهم بالتصوف لأنه يذهب إلى أن «الأديان جميعها أصلها واحد، وكل الأديان لها هدف واحد، ورسالة واحدة، وهم يعبدون الإله نفسه، والله في الكنيسة وفي المسجد»

وفي تقرير نشرته مجلة يو إس نيوز الأمريكية عام 2005م بعنوان: «قلوب وعقول ودولارات» يهدف إلى استراتيجية تدَّعي الوصول إلى العالم الإسلامي، يقول هذا التقرير في إحدى فقراته: «يعتقد الاستراتيجيون الأمريكيون بشكل متزايد أن الحركة الصوفية بأفرعها العالمية قد تكون واحداً من أفضل الأسلحة». ونقلت المجلة الأمريكية المذكورة أن واشنطن قامت بتمويل محطات إذاعة إسلامية وبرامج تلفزيونية ودورات تعليمية للترويج للإسلام المعتدل في أكثر من 24 دولة إسلامية."[2]

كما حضر السفير الأمريكي في القاهرة مولد البدوي في 16/ 10/ 1426هـ، معلناً إعجابه الشديد بعالم التصوف الإسلامي، ويقال: إنه انتسب إلى الطريقة الأحمدية وصار مريداً فيها، حيث أخذ العهد من أحد شيوخ الصوفية في مولد الشيخ البدوي.[3]

كما طلب السفير الأمريكي فرنسيس ريتشارد مقابلة شيخ مشايخ الطرق الصوفية حسن الشناوي، وتمت المقابلة في مقر المشيخة العامة بالحسين، كما حضر السفير الأمريكي في المغرب السهرة الصوفية التي أقيمت في الرباط.[4]

وهناك مادة علمية واسعة حول الاهتمام الدولي والعالمي بأمر التصوف، ليس هذا مجال عرضها، وهو في أساسه يعتمد على أمور عدة، منها:

[1] - انظر تقرير: «فهم الصوفية واستشراف أثرها في السياسة الأمريكية» (ص 6)
[2] - صحيفة يو إس نيوز: تاريخ (2005/4/25م)، نقلاً عن « التصوف بين التمكين والمواجهة » (ص 29-30).
[3] - صحيفة الشرق الأوسط: تاريخ (16 شوال 1426هـ)، صحيفة المصري: تاريخ (2007/11/2م).
[4] - صحيفة الوطن العربي: تاريخ (2006/5/5م)، نقلاً عن «التصوف بين التمكين والمواجهة» (ص 32).

1 – توهم بعضهم أن التصوف هو مصدر التسامح وأساس التعايش مع الآخر، وغاب عنهم أن التسامح في الإسلام الخالي من الشرك والابتداع.

2 – التآمر على أهل الإسلام بالاستفادة من عنصر التصوف الخرافي لنشر الجهل وإبقاء حالة التخلّف في الأمة.

يقولون لك: لماذا تهاجم أهل الطريق أو تنتقد أهل الله في زعمهم، هل انتهيت من كل الفساد والمفسدين؟ هل فرغت يدك من محاربة كل البدع والمفاسد والمخالفات التي التصقت بالدين، على أيدي المفجرة والمرتشين واللصوص والخونة والمستبيحين لحرمات الله، حتى تُسخر قلمك ليل نهار، ولم يعد لك مشغلة إلا حرب الصوفية والتنديد بمخالفاتهم والهجوم على فرقهم وطوائفهم؟!

حتى قال مؤخرًا أحد الجهلة ونحن ننتد ببدع الطرق الصوفية في الشيشان:

حتى مسلمو الشيشان لم يسلموا منكم.!

والحق أنني سأجيب هنا بنفس السؤال واللوم الذي وجه قديما للإمام العظيم محمد رشيد رضا رحمه الله، حينما قال له أحد شيوخه وقد كان رشيد شديد النكران على بدع الصوفية: أنصحك يا رشيد أن تكف عن أهل الطريق، فقال له: هل لأهل الطريق أحكام شرعية غير الأحكام العامة لجميع المسلمين؟

فقال الشيخ: لا، ولكن لهؤلاء في سماعهم نية، غير نية سائر الناس، ووجهة إلى الله غير وجهتهم، ومالك تخصهم بالإنكار عليهم، وإن من أهل اللهو من يسمعون الأصوات والأوتار في ملاهيهم، بل بلغني أن بعضهم يقامرون ليلا في قهوة العيوني.

فقال رشيد ردًا على شيخه: "إن أهل الطريق ذنبهم أكبر من أهل اللهو، لأنهم جعلوا السماع المنكر، ورقص حسان الغلمان عبادة مشروعة، فشرعوا لأنفسهم من الدين مالم يأذن به الله، كما أني لم أر منكرًا آخر ولم أنكره"

وانظر لهذه الجملة الأخيرة، وهي التي دومًا ما يتشدق بها كل مُنِكر حينما لا يجد حجة يحاجج بها، ولو أنه ترقب كل ما أكتبه من مقالات وآراء، لوجدني أنتقد ليل نهار من يستحقون النقد من الفاسدين والخونة واللصوص والمفرطين.!

قالها رشيد، ونحن نقولها ونثبتها الآن، ونقر أنها من حالنا ومنهجنا الذي نتبعه، ولم يخرج قلمنا للحياة ليتخصص في الصوفية ورذائلها، والطريق وبدعه وتخاريفه.

لكن المرء يأكله قلبه على العبادة التي حرفت، والذكر الذي زور، والخشوع الذي شوه، والقرب الذي زُيف.

أذكر مرة أنني كنت في زيارة لمنطقة الحسين وخان الخليلي، وبينما أنا أسير في الشارع، ظهر لي بائع للمسك والروائح، وقال لي: اشتر هذا ومد لي يده بزجاجة مسك، فقلت له: لا أريد، فقال لي: -انته لو مشترتش دي متعرفش إيه اللي حايحصلك-.!

قلت له: -اغرب عن وجهي فلست ممن تجدي معهم هذه المكيدة.

وانصرف الرجل متواريًا مخزيًا.

وهكذا يوجد فريق من الناس يستغلون الجهل وضعف الشخصية وقلة الإيمان ليخيفوا الناس من أهل الطريق، ويوهمونهم أن وراءهم قوة خفية، أو تأييدا إلهيا يمكن أن يفتك بأعدائهم، تماما كبعض المصريين، الذين يروجون لما يسمى بلعنة الفراعنة، وهذا كله إفك وزور، لا ينتشر إلا مع غياب العلم وضعف الأيمان.

فليكن دينك حصنك، وشريعتك درعك، الذي تستمد منه القوة العاتية التي تخيف ولا تخاف وترعب ولا ترتعب، لأنها من قوة الله الغالب القاهر.

الخديعة الكبرى

لابد من شيء سحري نمرر به الكفر، وخديعة كبرى يقع فيها السذج البسطاء، فلا يتجرؤون أن يرفضوا أن يحتجوا على تخاريف الصوفية وزور المهاويس، ممن يدعون أنهم من الأولياء.

ثم كان الوهم الأكبر، من يدعون أن طريق الصوفية وعر عظيم، فلا تنكر من غرائبه حالا، لأنك لا تدرك شيئا من حقائقه العظيمة، وأن الحقيقة وعالمها ورجالها، ليسوا كالبشر العاديين، فالله تعالى اختصهم بأمور وتصرفات وغرائب، قد ينكرها الناس ويرونها باطلا، ولكنها عين الحقيقة ومنبع الرضا، وشارة الكرمة الإلهية.

وهنا حينما يسمع أغرار العقول وأحداث الأفهام هذا الكلام، يقفون متسمرين، ويتصورون أن الإنكار هنا صار خطيئة وجريمة، في حق أناس يبدون من ظاهرهم أنهم أهل بدعة، وما هم في واقعهم إلا أهل الله والحقيقة.

وهكذا ينهدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتتمكن البدعة والخرافة ومخالفة الشرع من القلوب والعقول، بل تجد مع الوقت من يدافع عنها وعن أصاحبها، بحجة أنها الحقيقة التي عليها أولياء الله.

وهكذا يخرج القرآن من المعادلة، ينسى المغيبون الضالون، أن القرآن هو القانون الإلهي والحكم الرباني، الذي أنزله الله تعالى ليحكم حياتنا، ونستقي منه معالم الهدى والإيمان، وأن أي مخالفة لمنطوق هذا القانون إنما هي ضلال وزور ليس من الله تعالى في شيء.

ومن زعم أن الحقيقة غير الشريعة، فقد جهل وتزندق، فما الحقيقة إلا ثمرة الشريعة، ولا يؤتى الحقيقة إلا من فقه الشريعة وعمل بها وتمسك بسنة نبيها تمسكًا حرفيا متينًا ثاقبًا.

ما معنى أن يكون هناك ولي لله، وكل أعماله مخالفة لله، ثم يأتي من يدافع عنه ويحميه ويسبنا وينهرنا، لأننا لا نفهم شيئا ولا ندرك أو نعي أمرًا من طبيعته لأنه من أهل الحقيقة؟!

وهكذا كانت الحقيقة هي الطاغوت الأكبر والفرية الكبرى، التي تهدم عرى الدين بحجة أنها طريق الوصول، والعالم المجهول الذي لا يقترب منه إلا الخواص من الأولياء.

انطق بالكفر، أعلن الزور، لا تصلي، لا تطيع الله، تزندق، ارتكب كل المحرمات، واجن كل الفواحش، اسرق، ازني، داهن الكفار ووالي الظلمة، فأنت مباح لك كل شيء، أنت لا حساب لك، أنت لست كالبشر، فأنت من أهل الوصول والمعرفة، بل أنت من أهل الحقيقة.!

ومن عجب أنك ترى بعض الصوفية وهم يتنادون بما قال الجنيد سيد الطائفة، وما قاله الشعراني وغيره من أئمة التصوف، بأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، ثم إذا نظرت إلى حالهم وميولهم وأذواقهم، تراها أبعد ما تكون عما قال به أئمة التصوف المعتدلين رحمهم الله.

خلطة عجيبة من الإيمان والفهم، لا سناد لها من الله ورسوله، بل يكاد أن يكون إسلاما غريبا لم يعرفه السلف الأول، الذين هم أرضى الناس لله وأعرفهم به وآكدهم من رضاه.

إننا نؤكد اليوم وغدا وكل حين: أن القرآن هو الميثاق بيننا وبين الله تعالى، وهو القانون الذي يحكم حياتنا وتصرفاتنا وأفعالنا في الحياة والعبادات والأحكام والشرائع، وأن أي حياد عن هذا القانون والميثاق إنما هو جهل وضلال وفاعله بعيد عن طريق الله، وإن كان ظاهره يوحي أنه من خلص الأولياء فلا تفارق المسبحة يديه، ولا يكف لسانه عن ذكر الله.

تماما كهذا القاضي الذي يلبس لباس العدالة، ثم يظلم الناس ويجاري الظلمة ويداهن المرتشين، ويسعى لمصلحته وإرواء نهمه على حساب القانون والعدالة.

إننا من المنتمين إلى التصوف والمدافعين عنه والغيورين على طريقه، ونرفض أن يسيطر عليه أهل البدعة والخرافة، ويستحوذ على اسمه ورسمه سدنة الضلال.. لابد أن ننصر التصوف الحق، ونرد عنه زور أدعيائه، ونعيد إليه رونقه ونقاءه.

دار مؤخرًا حديث بيني وبين أحد الشباب النابهين في قريتي، حول معنى التصوف وحقيقته، ولعله كان حديثا قد دعا إليه ما ذكرته وتناولته قديما عن معنى التصوف والحقائق الغائبة عن سالكيه اليوم، أو الحقيقة الكبرى التي يتجاهلونها ويحاولون تعمدا أن يغفلوها في طيات طريقهم، فبعضهم يرى أن هذه الحقيقة تضاد أهواءه، وتعارض طريقه، الذي يروج للخرافة والبدعة والدجل والهلوسة.

ومع هذا الشاب الواعد كان تأكيدي على التصوف الحقيقي الذي نشأ في رحاب القرآن والسنة، ونصرة الحق ومحاربة الظلم، بعيدا عن هذا التصوف الجديد الدخيل الذي شرد به إلى اتجاه آخر ومخالف لحقيقته وطبيعته الأولى، ليصير اليوم رمزا للخرافة والبدعة والتملص من السنة واتباع الشريعة.

وتأتي المصيبة الكبرى لا لتكون في هؤلاء المخادعين بقدر ما تأتي في جمهور العوام من الناس، الذين انطبع في أذهانهم: أن الصوفي الحقيقي والعارف بالله هو الدرويش المخرف الذي يأتي بالبدع والتخاريف، ويسلك في تعامله بينهم سبلا توحي إليهم أنه غريب وشاذ ومغاير في طباعه لطبائع الناس، وهذا هو التميز الذي يجب أن يكون عليه الولي العارف بالله والصوفي الحاذق الواصل لما وراء الغيوب.

وما هو إلا مخادع دجال كذاب، يرتزق بجهل الناس وسذاجتهم.

ذكرني هذا الحال بقصة أحد الكذابين الدجالين التي رواها أحد الأدباء، حيث كان هذا الدجال يتكسب مالا وفيرا من كشف الطالع والمستقبل، كان يتكلم في التصوف ووحدة الوجود، ومعنى الظاهر والباطن، وانهزام كل القوانين أمام النفس الواصلة.

ويوما ما لجأت إليه أسرة ليشفي ابنتهم المصابة بمرض الصرع، فطلب منهم أن يتركوها في الدار معه، لأن العلاج من الجن يتطلب أن يختلي بها بعيدا عن الناس، ولم يكد ينصرف بعد الخلوة التي طالت، مبشرا بالشفاء، موصيا أن تترك الفتاة لحالها أياما لا ترهق بسؤال، حتى رأت الأسرة من فتاتهم تحولا بعد اعتداء له آثاره، فطار إليه والد الفتاة لا يقوى على أن يستل غضبه من براثن الخوف والرهبة من عالم الجن المسيطر عليها، ففاجأه الدجال بقوله: ماذا كنت أفعل؟

لقد استطعت أن أسيطر على العفريت الذي تلبسها وأمرته بالخروج، فقال: إن أمامه طريقين لا غير، أحدهما من عيني الفتاة، فماذا كنت أفعل ؟ هل كنتم تريدون مني أن أفقأ عين فتاتكم؟

وكتم الأب جرحه ولم يتقدم بشكوى ضد هذا المحتال خشية الفضيحة.

وهكذا أيقنت هذه الأسرة وحدها، أن هذا الرجل ليس نصابًا فقط، بل فاجرا فاسقا يتحدث باسم التصوف ويخوض في مسائل العارفين، وهو أخبث وأفجر خلق الله تعالى.

الشرع يحرم أن يختلي رجل بامرأة، فكيف يكون هذا وليًا معالجا بشرع الله، وهو أخرق الناس لشرع الله.؟!

وبكل سهولة إذا رأيت صوفيًا يخالف دين الله ويسير على غير تعاليم السنة، فاعلم وحدك مستيقنا أنه على طريق الشيطان، وقس على هذا كل صوفي يدعي الوصل بالله وسلوك طريق القوم، وهو بعيد عن البخاري ومسلم وآيات القرآن الكريم فهو كذوب ضال مضل.

ونعود أدراجنا قديما ومع البداية والنهاية لابن كثير.

إذ يحكي قصة ذات دلالة قوية على ما يقوم به بعض الصوفية من خداع الجماهير واستغفال العامة.

روى الخطيب البغدادي: أن الحلاج بعث رجلا من خاصة أصحابه وأمره أن يذهب بين يديه إلى بلد من بلاد الجبل، وأن يظهر لهم العبادة والصلاح والزهد، فإذا رآهم قد أقبلوا عليه وأحبوه واعتقدوه أظهر لهم أنه قد عمي، ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد تكسح، فإذا سعوا في مداواته، قال لهم: يا جماعة الخير، إنه لا ينفعني شيء مما تفعلون، ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له: إن شفاءك لا يكون إلا على يدي القطب، وإنه سيقدم عليك في اليوم الفلاني في الشهر الفلاني، وصفته كذا وكذا، وقال له الحلاج: إني سأقدم عليك في ذلك الوقت بنفس تلك الصفات.

فذهب ذلك الرجل إلى تلك البلاد فأقام بها يتعبد ويظهر الصلاح والتنسك ويقرأ القرآن.

فأقام مدة على ذلك فاعتقدوه وأحبوه، ثم أظهر لهم أنه قد عمي فمكث حينا على ذلك، فسعوا بمداواته بكل ممكن فلم ينتج فيه شيء، فقال لهم: يا جماعة الخير هذا الذي تفعلونه معي لا ينتج بشيء وأنا قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول لي: إن عافيتك وشفائك إنما هو على يدي القطب، وإنه سيقدم عليك في اليوم الفلاني في الشهر الفلاني، وكانوا أولا يقودونه إلى المسجد ثم صاروا يحملونه ويكرمونه ثم أتى الوقت الذي ذكر لهم، واتفق هو والحلاج عليه، أقبل الحلاج حتى دخل البلد مختفيا وعليه ثياب صوف بيض، فدخل المسجد ولزم سارية يتعبد فيها لا يلتفت إلى أحد، فعرفه الناس بالصفات التي وصف لهم ذلك العليل، فابتدروا إليه يسلمون عليه ويتمسحون به، ثم جاؤوا إلى ذلك الرجل المدعي

المتعافى فأخبروه بخبره، فقال: صفوه لي، فوصفوه له فقال: هذا الذي أخبرني عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وأن شفائي على يديه، اذهبوا بي إليه.

فحملوه حتى وضعوه بين يديه فكلمه فعرفه فقال: يا أبا عبد الله إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ثم ذكر له رؤياه، فرفع الحلاج يديه فدعا له ثم تفل من ريقه في كفيه ثم مسح بهما على عينيه ففتحهما كأن لم يكن بهما داء قط فأبصر، ثم أخذ من ريقه فمسح على رجليه فقام من ساعته فمشى كأنه لم يكن به شيء والناس حضور، وأمراء تلك البلاد وكبراؤهم عنده، فضج الناس ضجة عظيمة وكبروا الله وسبحوه وعظموا الحلاج تعظيما زائدا على ما أظهر لهم من الباطل والزور.

ثم أقام عندهم مدة يكرمونه ويعظمونه ويودون لو طلب منهم ما عساه أن يطلب من أموالهم.

فلما أراد الخروج عنهم أرادوا أن يجمعوا له مالا كثيرا فقال: أما أنا فلا حاجة لي بالدنيا، وإنما وصلنا إلى ما وصلنا إليه بترك الدنيا، ولعل صاحبكم هذا أن يكون له إخوان وأصحاب من الابدال الذين يجاهدون بثغر طرسوس، ويحجون ويتصدقون، محتاجين إلى ما يعينهم على ذلك، فقال ذلك الرجل المدعي المعافى:

صدق الشيخ، قد رد الله علي بصري ومن الله علي بالعافية، لأجعلن بقية عمري في الجهاد في سبيل الله، والحج إلى بيت الله مع إخواننا الأبدال والصالحين الذين نعرفهم، ثم حثهم على إعطائه من المال ما طابت به أنفسهم.

ثم إن الحلاج خرج عنهم ومكث ذلك الرجل بين أظهرهم مدة إلى أن جمعوا له مالا كثيرا ألوفا من الذهب والفضة، فلما اجتمع له ما أراد ودعهم وخرج عنهم فذهب إلى الحلاج فاقتسما ذلك المال ! "

"إن بعض الصوفية المعاصرون، يريدون أن يوهمونا أن الحلاج كان مناضلا سياسيا، و أنه إنما قتل بسبب نضاله ووقوفه ضد الظلم !

وهو أبعد ما يكون عن ذلك الشرف، فقد كان الحلاج على صلة وثيقة بالسلطة، انظر قول القرطبي عن هذا عندما ذكر أن أحد أتباعه كتب كتابا عن معجزاته: " واجتمع معه على هذه الحال أبو على هارون بن عبد العزيز الأوارجى الكاتب الأنباري وقد كان عمل كتابا ذكر فيه مخاريق الحلاج وحيله وهو موجود في أيدى جماعة والحلاج حينئذ مقيم في دار السلطان موسع عليه مأذون لمن يدخل إليه وهو عند نصر الحاجب"

فالحلاج كان مقربا للسلطة في بادئ أمره إذا !

بل أكثر من ذلك فإن الحلاج حصل على اكثر المحاكمات عدالة وتحقيقا وتمحيصا في التاريخ يكفي أن تعرف أن محاكمته استمرت سبع سنوات كاملة، لاحتراز العلماء في الحكم عليه .. حتى بعد أن سمع الوزير حامد بن العباس أن الحلاج ادعى الألوهية، إذ جمع اتباع الحلاج وسألهم عن حقيقة هذا الأمر، فردوا بالإيجاب و أنهم فعلا يعتقدون في ألوهيته، ولكن انظر إلى قمة العدالة عندما واجهوا الحلاج بهذا في وجود العلماء فأنكر لابسا ثوب البراءة وقال "أعوذ بالله أن أدعى الربوبية أو النبوة وإنما أنا رجل أعبد الله عز وجل وأكثر الصوم والصلاة وفعل الخير لا غير" !

وهو قول يذكرك بتخلي أئمة الضلال عن اتباعهم يوم القيامة " إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ " 166 سورة البقرة.

والان انظر لرد العلماء الذين حضروا المحاكمة، عندما سألهم الوزير عن حكمهم في ذلك الضلالي "ذكروا أنهم لا يفتون في قتله بشيء إلى أن يصح عندهم ما يوجب عليه القتل، وأنه لا يجوز قبول قول من ادعى عليه ما ادعاه، وإن واجهه إلا بدليل أو إقرار" !

هؤلاء هم المتآمرون عليه كما يدعي بعض الصوفية الجائرين !"[1]

وحي الشيطان

خرافات وبدع وأضاليل تقع على لسان وأحوال كثير من الذين يزعمون أنهم من العارفين بالله، الذين يلتزمون طريق التصوف وانتهاج الزهد والعبادة.

ومن هنا كان رفق الله بأمته، حينما جعل الشرع هو الميزان والقيد والحكم الفصل في الصواب من الخطأ، والصحيح من السقيم، فهؤلاء الذين أوغلوا في طريق الصوفية يحدث لهم بعض الخلل وعدم التوازن في كثير من التصورات، حينما يؤمنون بأمور لا يحتاجها طريق التدين في شيء، ويخرج به عن مساره القويم الذي عرفه وقدمه نبي الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، لكنهم يرون أهمية الأحوال، ويؤمنون بضرورة الأطوار، ومنها وعلى رأسها مخاطبة الأرواح السالفة واستحضارها والحديث معها، وأكثر هذه الأرواح التي تتم رؤيتها والتعامل معها، إنما هي أرواح الشياطين من قرناء المشركين.

وبعض الصوفية الذين كانوا يغيبون عن حسهم وعقولهم، بسبب رياضتهم العنيفة الشديدة، كانت الشياطين تستغل ذلك وتوحي إليهم ما يعتقدون أنه إلهام من الله تعالى أو إشارة من شيوخهم المعتبرين.!

فابن عربي حينما قال: إن فرعون موسى كان من أكابر العارفين بالله والمقربين منه، لم يكن إلا ضرب من وحي الشيطان وتغريره به، والذي تصوره في صورة إلهام أو خطاب من الله، وما هو إلا عمل شيطان، وبعضهم أغواه الشيطان، فأوحى إليه أنه نبي حتى نقل عن ابن سبعين قوله: لقد تحجر ابن آمنة واسعًا بقوله: لا نبي بعدي.!

[1] - من مقال للباحث خالد بكري

وقول بعض المخرفين منهم: إن التكاليف خاصة فقط بغير الواصلين، لأن الواصلين بلغوا مراتب اليقين، وابتدعوا تأويلا فاسدًا لقوله تعالى: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين"

ولم يفهموا أن الموت هو تأويل اليقين، وأن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ظل يعبد ربه تعالى حتى نهاية أجله.

نعم هناك صوفية ساقهم الغلو في العبادة والنزوح إلى عالم الترهبن، والرياضة الشديدة العنيفة في شدة الجوع وطول التأمل، والخلوة والسهر الطويل، أن يختل توازنهم ويضطرب عقلهم، فإذا بهم تظهر عليهم أحوال غريبة، وتقع لهم أمور عجيبة، لا تستوعبها عقولهم ويظنون أنها إلهام من الله لهم، وأنها طريق الوصول والمعرفة الحقيقية، التي لا ينعم الله بها إلا على الخواص من البشر، وهو وهم فارغ وظن زائف، فهذه المعرفة وهذا الوصول، وهذه الأحوال، لم تظهر على أعظم وأنبل وأطهر وأخلص من عرفت الأرض من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، حتى تظهر لمن دونهم.!

والأمر محسوم سلفًا، فكل ما خالف الشريعة من كشف وخوارق، فهو من وحي الشيطان، وبعض المتصوفة من أهل التحقيق، ذكر أن الرجل إذا رأيناه يطير في الهواء، فلا نغتر به حتى نقف على حاله من الأمر والنهي.!

ومما يذكر أن للشيطان مع بعض الصوفية الكبار الواعين الفاهمين المتقيدين المتسننين، بعض المساجلات والمناظرات، فقد نقل عن الجيلاني رحمه الله قوله: تراءى لي نور عظيم ملأ الأفق، وسمعت منه صوتًا يقول لي: يا عبد القادر أنت عبدي وقد أحللت لك المحرمات، فقلت له: اخسأ يا لعين، فتحول هذا النور إلى دخان مظلم، وقال لي: قد نجوت مني بعلمك بأمر ربك، وفقهك في أحوال منازلاتك، وقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق.. فقلت: لله الفضل، فقيل له: كيف علمت أنه شيطان قال: بقوله: قد أحللت لك المحرمات.!

وجاء الشيطان إلى بعضهم وقال له: ألست أنا شيئًا فقال الصوفي نعم، فقال له: إن الله تعالى يقول: ورحمتي وسعت كل شيء، فقال له الصوفي العالم: أكمل الآية يا لعين يعني (فسأكتبها للذين يتقون).

وهكذا يظهر لنا أن العلم هو العاصم من هذا الزلل الخطير، وأن المعرفة بالشرع، تقى مصارع الشيطان، وتحمي الإنسان أن يقع في مصائده.

وهناك جماهير عريضة ممن يتبعون هؤلاء الصوفية، الذين يستلهمون وحي الشيطان، يبررون لشيوخهم بحجج يلغون معها كل صور العقل والمنطق والدين، ويقولون: إنهم قد استبان لهم كشف من الله لا نبلغ درجته، ولا نعرف كنهه ولا إدراكه، اطلع عليه شيخ ولا يسعنا إلى الإيمان به، وهكذا يخلقون لهم مناخًا ينمي الضلال ويروج الأكاذيب، التي تخالف النصوص والشريعة وتعارض القرآن الكريم.

يقول الغزالي في الإحياء توصيفا لبعض صور الصوفية: "وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل أحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم، صالح للاقتداء به، وإحصاء أصنافهم يطول.

وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء وأحسنت الأعمال، وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضى والحب، من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدعي الوجد والحب لله ويزعم أنه والله بالله، ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر، فيدعي حب الله قبل معرفته، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله، وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق، ولو خلا ما تركه حياء من الله."

هل تصدق أن الإسلام الحق، والمعرفة الجيدة بالدين، لم تتنزل ولم تتجل إلا بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وانتهاء قرنه وما بعد من قرون الخير.؟!

نعم هكذا يفهم ويعلن صوفية الحضرات والذكر الذي يتمايلون به ويستديرون ويحدثون نوعا غريبا من هيئته يقوم على التراقص والتمايل والهيستيريا وأفعال المجانين، يسعون من خلاله أن تصيبهم غيبوبة وإغماءه، هي في تصورهم منحة إلهية، وحالة من السكر الإلهي المنشود، والتي لا يبلغها إلا من أخلص في الزهد والعبادة.

ماذا لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم موجودا بين هؤلاء ورأى أفعالهم؟

بل ماذا لو كان أحد الصحابة رضي الله عنهم جميعًا موجودًا ورأى هذه المهازل؟

لا شك أن العقاب سيكون أليما، والنكران عليهم سيكون شديدًا!

كلي إيمان عميق حسب ما تعلمنا من ديننا، أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، هم أنقى من عرفت الأرض إيمانا ونقاء ويقينا وعبادة وعملا وجهادا وتطبيقا حادًا لحدود الإسلام، وحينما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه، أوصى كذلك باتباع سنة أصحابه الراشدين المهديين من بعده، لأنهم قبس من نور الهداية النبوية، ونجوم تضيء لطلاب الهدى سبل الدعوة والرسالة، حسب ما أخذوه وفهموه من حبيبهم المختار صلى الله عليه وسلم.

اللستة والتهمة حاضرة لكل من يعترض ويتهم طريق الصوفية الضالة، التي تأتي بما لم يأت به رسول الله وصحابته الأطهار في ألوان الذكر والعبادة...

-إنك جاهل بحال القوم

-الطريق لا يعرفه إلا من وصل

-التمايل والتراقص في الذكر حالة من الهيام مع الله.

وهكذا يتم الإيمان بأن هناك طريق للدين، وسلوك للمعرفة الربانية، ووسائل مستحدثة، لم يكن يعرفها الصحابة الكرام، ولم يمارسها سيد الشريعة صلى الله عليه وسلم.!

ألا إن العبادة كما تعلمنا من شيوخنا وقف في الدين، فالذكر والصلاة والأذان وكل ما يخص العبادة من أقوال وحركات وأفعال، هي عملية وقفية لا يجوز لك الابتداع فيها واستحداث ما يراه هواك، لأنك هنا كأنك تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن ما أتيت به أنت عن ربك غير جيد، وما استحدثته أنا هو الصحيح والصواب والحسن.

وهو لون من قلة الأدب مع الدين والشرع والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

رأيت مقطعًا يصور بعض الحلقات الواقفة للطريقة الصوفية التي ينتسب إليها الرئيس الشيشاني الحالي رمضان قديروف، والحق أن القوم كانوا في قمة المهزلة والسخرية، وهم يجرون وراء بعضهم في حلقة دائرية، يذكرون الله وينتفضون بأجسادهم، لقد تأملت ذلك ولم يقبل عقلي أبدًا أن يكون الصحابة مكان هؤلاء، يفعلون فعلهم ويمارسون مثل هذه المساخر.

قابلت مرة في صباي أحد الصوفية الضالة، وقولي صوفية ضالة، يعكس ما في فهمي وأؤكد عليه كثيرًا: بأن هناك صوفية صادقة متحققة متسننة على الطريق القويم، فليس التصوف كله زورًا وبهتانًا وبدعا وضلالا، لكن صاحبي كان من فرق الخرافة، قلت له: ما هذا الرقص والتمايل في الحضرات، هل هو من الدين في شيء؟! فقال لي ما أدهشني، حينما تلى علي قوله تعالى: "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"[1] وأن هذه الآية تثبت صحة ما يتم فعله في الحضرات وهذه الطريقة في الذكر، ولما رجعت للتفسير، وجدت المعنى مختلفا تماما، وأن الرجل يؤول القرآن تأويلا فاسدا يوافق هواه.

[1] - آل عمران : 191

ذهب الشيخ رشيد رضا يوما لمشاهدة الطريقة المولوية، فإذا بدرويشهم يخرج وإذا بغلمان منهم مردان حسان الوجوه يلبسون غلائل بيضًا ناصعة كجلابيب العرائس، يرقصون بها على نغمات الناي المشجية، ويدورون دورانًا فنيًا سريعًا تنفرج به غلائلهم، فتكون دوائر متقاربة على أبعاد متناسبة، لا يبغي بعضها بعضًا، ويمدون سواعدهم ويميلون أعناقهم، ويمرون واحدا بعد آخر أمام شيخهم، فيركعون له.

تعجب رشيد وتساءل عما يحدث فقيل له: هذه طريقة جلال الدين الرومي، لكن رشيد لم يتمالك نفسه، وصاح بأعلى صوته وقال خاطبًا في الناس: هذا منكر يا قوم لا يجوز النظر إليه، ولا السكوت عليه، وهؤلاء يتخذون دينهم هُزوًا ولعبًا، وأمر الناس أن ينفضوا من حولهم فمنهم من خرج ومنهم من بقي.

نكرر مرة أخرى: أن الإسلام الحقيقي والمثالي والتام هو ما كان عليه صحابة النبي المكرمين، في كل شيء من حلهم وترحالهم، في مشيهم وقعودهم، في ذكرهم وصلاتهم، في أكلهم وشربهم، كانوا صورة حية لما يريده الله تعالى من عباده، وتجسيدًا قويما صادقًا لما أراده الإسلام من أتباعه.

إلهام أم أوهام؟

هل تعتقد أن الدين ناقص؟!

أنت كمسلم سني مؤمن بالله ومصدق لرسوله صلى الله عليه وسلم، لا تعتقد ذلك؟! لأن الله تعالى يقول: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"[1]

لكن هل تتخيل حينما ترى صوفية الحلول والاتحاد، يؤمنون بأن الدين ناقص، فهم يزعمون أن طريق الدين قسمان: الشريعة والحقيقة.. وأن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ الشريعة ولم

[1] - المائدة: 3

يبلغ الحقيقة، واتخذوا من الإلهام طريقًا لمعرفة الدين والوقوف على هذه الحقيقة، حتى ولو كان يخالف الوحي.!

عجبًا عجبًا.!

فالوحي يكون للرسول عن طريق الملك، أما الإلهام فهو للولي من الله تعالى مباشرة! ومن هنا يأتي التفسير والفهم لهذا التعصب الكبير لأقوال الصوفية والدفاع عنها من أتباعها، حتى ولو كانت تخالف دين الإسلام وشريعته، وتسمع على الدوام هذه القول الموهوم: بأنك لا تفهم كلام الخواص، وهذه أمور لا يفهمها إلا الواصلون.

فإذا ضيقنا عليهم الخناق، وألزمناهم الحجة، لا يجدون مناصًا من الادعاء بأن هذا الولي الكريم، قد دست على كتبه وآثاره هذه الأفكار ولم يقلها، ولكن الانحراف المتعدد والمتكرر لكثير من أئمة الصوفية الضالة يؤيد بعضه بعضا، ويؤكد أن القوم لم يُدَّس على أفكارهم شيء، وإنما هي من معين الإلهام الذي يتصورونه.!

ثم إنك تفزع كل الفزع، حينما تجد رجلا مثل ابن عربي، في كتابه الفتوحات المكية، الذي عمل المستشرقون والتنويرين على طباعته والترويج له، فالرجل يرى أن أفكاره في الكتاب، إنما هي بإملاء الله، أي بالصورة الأخرى والطريق الثاني غير الوحي وهو الإلهام فيقول:

" لم يكن لي من اختيار، ولا عن نظر فكري، وإنما الحق يُملي لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره"

ويقول: "فو الله ما كتبت منه حرفًا إلا عن إملاء إلهي، وإلقاء رباني، أو نفث روحاني في روع كياني، هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسل مشرّعين ولا أنبياء مكلفين"

ويقول: " الإلهام للعبد من الوجه الخاص الذي بين كل إنسان وربه: وذلك من خلال ارتفاع الوسائط -كما يقولون- فلا يعلم به أحد ولا ملك الإلهام أيضًا، وهذا عندهم أجَلّ وأرفع أنواع الإلهام والإلقاء إذا حصل الحفظ لصاحبه"

وبالتالي إذا عارضت هذا الإلهام فقد عارضت الله، ومن ثم يرى الكثيرون منهم في ضوء هذا الخرف، بأن كتاب الفتوحات يضاهي في قدسيته القرآن الكريم، فالوحي لم ينقطع، وإنما صارت له صورة مغايرة وطريق مختلف.!

فالصوفية العبثية تجعل الإلهام طريق من طرق الوحي والحجة وإثبات حجيته مطلقًا، يقول أبو المواهب الشاذلي: "في جواب الاعتراض على قولهم (حدثني قلبي عن ربي): لا إنكار؛ لأن المراد: أخبرني قلبي عن ربي من طريق الإلهام الذي هو وحي الأولياء"

والحق أن الإلهام موجود وقائم، والقلب أحيانا وكثيرا ما يستريح لأشياء متعددة في حياته، ويخيل إليه أنها الصواب، حينما يجد إحساسه وراحته النفسية تندفع إليها، لكن حينما تكون هذه الراحة، ويكون هذا الإلهام مخالفا للشرع، فهو أوهام لا إلهام! فالله تعالى أنزل دينه كاملا غير منقوص، ولا طريق لبيان الدين وأصوله إلا بالوحي، كما أن إلهام الأنبياء وحي، أما أن نصدق إلهامًا مخالفا للدين ومن طريق غير طريق الأنبياء، فهذا ضلال في ضلال، كما أن الولي إذا استراح لأشياء وآمن بها ورواها وكانت موافقة للدين، فلا يجوز له أن يقرر ويقول بأنها إلهام من الله، على اعتقاد أن هذا الإلهام مرتبة ثانية توازي الوحي.!

وقد بينت سابقًا فيه كيف يخترق الشيطان دنيا كثير من هؤلاء المتصوفة، فظهرت عليهم حالات من رياضتهم وقسوتهم على أنفسهم، ويسمعون بعض الهواتف، فيخيل إليهم أنهم يسمعون الملائكة، ومن ثم يطيعونهم فيما يأمرون، ويبلغون عنهم فيما يوعزون، حتى ولو كان

مخالفا للقرآن والسنة، ونسوا أن الله تعالى أتم دينه، وختم النبوة برسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وما أكثر ما نوهنا بالفرق الظاهر عند بعض الناس بين رضاء الله والراحة النفسية، فأحدهم لا يصلي ولا يصوم ويشعر بارتياح في نفسه، فيقول: (ربنا راضي عني وأهم شيء هنا) ويشير إلى محل قلبه، ولكن أي رضاء وأي نعيم وأنت لا تعبد الله ولا تطيعه؟!

فاعلم يا دعي الرضا: أن الإلهام والراحة النفسية في شيء ما، إذا كان موافقا للشرع فهو هداية من الله، وإن كان مخالفا لنص القرآن والسنة، فعليك أن تقف مع نفسك وتفئ إلى الله سبحانه، فأنت في خطر والشيطان قريب منك.

فقال العلامة الألوسي في تفسير قوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " أي تتنزل عليهم الملائكة عند الموت و القبر و البعث، و قيل تتنزل عليهم: أي يمدونهم فيما يعِنّ و يطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية، بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف و الحزن بطريق الإلهام، و هذا هو الأظهر لما فيه من الإطلاق و العموم الشامل لتنزلهم في المواطن الثلاثة و غيرها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " القلب المعمور بالتقوى إذا رجّح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي (و الترجيح يكون بين رأيين متساوين في الأدلة)، و قال: " فمتى ما وقع عنده و حصل في قلبه ما بطن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله و رسوله، كان هذا ترجيحا بدليل شرعي، و الذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقا إلى الحقائق مطلقا أخطأوا، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله و تقواه ،كان ترجيحه لما رجح أقوى من أدلة كثيرة ضعيفة، فإلهام مثل هذا دليل في حقه "

و قال ابن السمعاني: " و اعلم أن إنكار أصل الإلهام لا يجوز، و يجوز أن يفعل الله تعالى بعبدٍ بلطفه كرامة له، و نقول في التمييز بين الحق و الباطل من ذلك: إن كل ما استقام على شرع النبي محمد صلى الله عليه و سلم و لم يكن في الكتاب و السنة ما يرده فهو مقبول، و كل ما لا يستقيم على شرع النبي صلى الله عليه و سلم فهو مردود، و يكون ذلك من تسويلات النفس و وساوس الشيطان ،و يجب رده"[1]

مهما علت مكانة المرء الدينية، فهو مردود عليه، ولا يعني كونه أعلم الناس أو أعبد الناس، أن نعامل رأيه معاملة الوحي والقرآن، فيمكن له أن يكون مخطئًا، خاصة إذا كان الحديث عن شيء مجهول وغير مدلول عليه بحجة أو برهان، وهذه الجملة الأخيرة أؤكد عليها، حتى لا يتخذ المغرضون كلامي على أنه منفذ للطعن في تراث العلماء والفقهاء في فتاويهم واجتهاداتهم، كما يفعل مرجفة العلمانية، فليس إلى ذلك قصدت، ولا إلى هذا أردت.

انظر إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهذا الصحابي الكريم، كان يتمتع بسمات وخصائص، لا يتمتع بها كثير من الصحابة الكرام، وقد أدرك النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، هذه القدرات والسمات، فأعلن عنها وأشاد بها.!

فقد ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: "قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم."

وأخرج أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"

وقال صلى الله عليه وسلم: "لو كان نبيًا بعدي لكان عمر".!

[1] - قواعد الأدلة في الأصول للسمعاني

ورغم هذه الإشادة الكبيرة، والمكانة العظيمة، والقدرات الفذة، لم يكن صاحبها بمنأى عن الخطأ في الرأي والاجتهاد والكلام.!

فيوم صلح الحديبية، كان لعمر رأيه واجتهاده الذي رجع عنه، وقال: أيها الناس اتهموا الرأي على الدين.

وكان خطأه الباهظ في التقدير عند موت النبي صلى الله عليه وسلم، حتى ردته كلمات أبو بكر.!

بل كان خطأه الواضح في قتال مانعي الزكاة حتى رده يقين أبو بكر.!

وكان إذعانه المعلن ونزوله على رأي امرأة ردته في غلاء المهور.!

لقد كان عمر إذن يُخطئ، وله اجتهادات تجانب الصواب، وهو الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم عنه بأنه محدث.!

فالقلب أيها العاقل، ليس وحيًا تأخذ عنه طالما وجدته مطمئنا لشيء.. القلب والإحساس والعقل، وهذه الأوهام التي يستند إليها الكثيرون، لا يمكن أبدًا أن تكون سندًا للصواب والخطأ، وإنما الحكم والغلب للدين، إذا كان رأيه ظاهرا وقوله معلوما، يتنافى مع وجوده أي كلام وأي رأي.

تبقى لفتة مهمة جدًا جدًا، لا يمكن لنا ولا لها أن تمر دون رصدها وتسليط الضوء عليها، وهي في سلوك عمر نفسه، الذي قيلت فيه هذه الكلمات، فلم يغتر بها، أو تسوقه للثقة الزائدة في نفسه، فيأخذ عن قلبه، ويستدعي من أحاسيسه، لأنه هو الذي قال فيه النبي بأنه ملهم محدث، أو أنه لو كان نبي بعدي لكان عمر.!

لم يكن عمر رضي الله عنه ليصيبه الغرور بهذا، وإنما كان يشاور الصحابة ويأخذ رأيهم، ويحتج عليهم ويحتجون عليه، ويرجع عن بعض الآراء والاجتهادات.

الشطحات

أعجب كثيرًا من بعض الصوفية الذين يعتبرون غاية الدين والولاية، في الشطح بغرائب الأقوال والألفاظ والتعبيرات.

وكلما أتى المتحدث منهم بغرائب الكلمات وطلاسم الجمل ، كلما كان لديهم وفي نظرهم آية في القرب من الله سبحانه والمعرفة به.

وهو تصور مرذول درجت الصوفية المعاصرة على فهمه وتقليده والاعتقاد فيه، والمفزع في الأمر، أن هذه الشطحات من الجمل والتعبيرات التي يتندرون بها، تحمل في طياتها أقبح معاني الكفر والإلحاد الذي تنهد له الأرض وتخر له الجبال، ويوشك الله القدير أن يعم البشرية بلعنة من سوء ما قيل وقبح ما ذكر.!

جمعتني الأيام ببعض هؤلاء المخرفين، في جلسة أو حضرة من حضراتهم، وفي زاوية من زوايا الحضرة، جلس شيخهم الأكبر يدخن الشيشة، وهم من حوله فرحون منتشون، ينتظرون تلك اللحظة الفريدة، التي تتجلى فيها معنى الولاية الحقيقة من الله سبحانه وهي لحظة الشطح، وبدأ الشيخ يهرف بكلمات غريبة ، وهم يهللون حوله، وبعضهم يرد عليه بأقبح منها، وهو يبتسم لهم ويقرهم عليها، ثم لما رأوا غرابتي، فسروا لي ما تنطوي عليه من معاني الخير مع قبحها الظاهر، إلا أنها لا تعنيه ولا تعبر عنه، ويبدو أنها ألفاظ تدربوا عليها، وتمرنوا كثيرًا على التلاعب بها، حتى صارت من فلكلور الطريقة التي يتبعونها، ومسلكًا من مسالك حضراتهم وطقوسهم التعبدية، شأنها شأن الأوراد والصلوات.

ومما أذكر من هرائهم قول الشيخ لأحدهم: ربنا يكرمك ليلة الدخلة.

ويقصد بها كما فسرت لي: ليلة دخول القبر، وليس المقصود بها دخلة الزواج.

ورد عليه المريد بقوله: ربنا يخدك يا عم الشيخ.

فلما تعجبت شرحوها لي بأنها: يأخذك لنعيمه.

كانت جلسة تهريج وخرافة، بعيدة كل البعد عن المعنى المشهود من التدين المنضبط المستقيم، ولكن هذه هي عقولهم وهذا هو معتقدهم.

لقد تخيلت أننا في حلقة من حلقات الفوازير، والرجل يملي عليهم ألغازًا ليرى من منهم يستطيع حلها وفك رموزها.

وأنا أتساءل أمام من يؤمنون بهذه الشطحات اللفظية: هل الولاية والقرب من الله سبحانه طريق مبتكر وعلم مطور؟

أبدًا أبدًا.. إنما هي منهج مقلد وسبيل متبع، ولن يأتي الأواخر فيه أبدًا بأكثر وأوفى مما أتى به الأوائل، ولن يبلغوا فيه أشد ما بلغوا فيه من مراقي الرتب والمقامات، حين كانوا المثل العليا في معاني الولاية والقرب من الله الكبير.

(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) الحجرات: 49

فالنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وصحابته الكرام والتابعين العظام من القرون المفضلة الأولى، لم يأت أحدهم بمثل هذه الغرائب والنكات الفارغة، وكانوا قمة الأدب مع الله تعالى الذي لم يتجاوزه أبدًا بدعاوى الشطح المبررة المتأولة.

يقول أحدهم: "محمد خير من ربه"

ثم ينبري المؤولون: بأنه لا يقصد العبد أفضل من الخالق، ولكنه خير منه، أي خير قادم منه سبحانه.

ويقول أحدهم: سبحانك سبحاني!

فلما أُنكر عليه قال: سبحانه في جلاله وعظمته، وسبحاني إذ جعلني في هذه الصورة الحسنة والخلقة البديعة، فكان تسبيحي تسبيحه، وتنزيهي تنزيهه.!

ومما قرأت لابن عربي قوله:(يا من يراني ولا أراه... كم ذا أراه ولا يراني)

فقيل له: كيف تقول: إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك فقلت له مرتجلا:

(يا من يراني مجرما ... ولا أراه آخذا)

(كم ذا أراه منعما ... ولا يراني لائذا)

وينبري المقري التلمساني ينافح عن هذا القول في نفح الطيب بقوله: "من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى مؤول، وأنه لا يقصد ظاهره، وإنما له محامل تليق به، وكفاك شاهدًا هذه الجزئية الواحدة، فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد، وللناس في هذا المعنى كلام كثير والتسليم أسلم والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم"

ومن تلك المتشابهات في كلام محيي الدين: أنهم نسبوا إليه وحدة الوجود، ونسبوا إليه أنه جعل الحق والخلق شيئًا واحدًا؛ حين قال:

"فيحمَدني وأحمَده ويعبُدني وأعبُده"

يقول الشعراني: «هذا منطق عربي مبين، على نهج الأسلوب القرآني، وعلى صحة نسبة هذا القول إليه، فمعنى يحمدني: أنه يشكرني إذا أطعتُه، كما في قوله — تعالى: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ.

وأما قوله: «ويعبدني وأعبده» أي: يطيعني بإجابته دعائي، كما في قوله — تعالى: لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ أي: لا تطيعوه، وإلا فليس أحد يعبد الشيطان كما يعبد الله — سبحانه.»

وأنا بعيدًا عن مسألة وحدوة الوجود، لا أعلم الداعي لولج عالم الألغاز وإقراره سمة من سمات أهل الولاية والقرب من الله، وهي ألفاظ وتعبيرات توهم بالشرك وتبلبل أفكار الناس، وتخلق الفتن في الأجواء المؤمنة، ومن سمات هذا الدين الذي أتمه الله سبحانه وأنزله للناس أنه بيّن، أو واضح ظاهر جلي، ومن أقواله صلى الله عليه وسلم: الحلال بين والحرام بين.

فلم إذن هذا الغموض وهذا الشطح الذي تنطق جمله بالكفر القبيح ، ثم نسارع إلى التأويل الذي يبرئ أصحابه من السوء، وما أبدا كان هذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا صحابته الكرام.

يقول أحدهم: "و للصوفية اصطلاحات ورموز، ولغة اختُصوا بها، فإذا اختُلف في معانيها، يجب أن ترد إلى أصحابها وأولي العلم بأسرارها. يقول محيي الدين: «اعلم أن أهل الله لم يضعوا الإشارات التي اصطلحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم؛ فإنهم يعلمون الحق الصريح في ذلك؛ وإنما وضعوها منعًا للدخيل؛ حتى لا يعرف ما هم فيه؛ شفقةً عليه أن يسمع شيئًا لم يصل إليه، فينكره على أهل الله فيُعاقب.» والغريب أن هذه المصطلحات الغامضة، خلفت الفتن والتهمة والريبة على الطريق وأهله.

ويقول: «إن من أعجب الأشياء في الطريق أن ما من طائفة تحمل علمًا من المنطقيين والنحاة، وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين، إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوقيف منهم إلا أهل هذا الطريق، فإن المريد الصادق إذا دخل طريقهم وما عنده خبر بما اصطلحوا

عليه، وجلس معهم وسمع ما يتكلمون به من الإشارات، فَهِمَ جميع ما تكلموا به، حتى كأنه الواضع لهذه المصطلحات.»

ويقول مجد الدين الفيروز آبادي: «كما أعطى الله الكرامات للأولياء، أعطاهم من العبارات ما يعجز عن فهمه فحول العلماء.»

ويقول محيي الدين: «كثيرًا ما يهبُّ على قلوب العارفين نفحات إلهية، فإن نطقوا بها جهَّلهم مَنْ لا يعلم، وردَّها عليهم أصحاب الأدلة من أهل الظاهر، وغاب عنهم أن الله — تعالى — كما أعطى أولياءه الكرامات، أعطاهم العبارات المعجزة.»

لكل علم من العلوم اصطلاحاته الفنية، ولغته الخاصة؛ فيجب الإحاطة أوَّلًا بلغة التصوف ورموزه، قبل الجحود والإنكار.

يقول محيي الدين: «مَنْ لم يقم بقلبه التصديق لما يسمعه من كلام هذه الطائفة فلا يجالسهم، فإن مجالسهم سُمٌّ قاتل.»

يُحَذِّر محيي الدين من سوء الفهم، أو سوء التأويل لكلمات العارفين، الذين أوتوا الكرامات، كما أوتوا الكلمات المعجزة، والرقائق الغالية، والدقائق المشرقة."[1]

"والصوفية يشبهون الشطح بالسكر الذي يحمل صاحبه على البوح بكلام لا يصدر عن عقل ووعي، أي غلبه الحال مع ضعف العقل والتمييز فنطق بكلام فيه دعوى الاتحاد بالله كقول أبي يزيد البسطامي: سبحاني ما أعظم شاني"[2]

وأبو يزيد يعد من أشهر من عرف بالشطح، والذي نسب إليه الكثير منه، فمن ذلك قوله: رفعني مرة فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زيني

[1] - محيي الدين بن عربي – طه عبد الباقي سرور
[2] - شطحات الصوفية لعبد الرحمن بدوي

بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا"

وعندما قال ابن منصور الحلاج: "معبودكم تحت قدميّ"، اتُّهم بالزندقة والكفر وقُتل، واتضح أنه كان يقصد المال، الذي يحبه الناس لدرجة العبادة.

وقال أحدهم مودعا جماعة زاروه: " مروا أنا معكم حيثما كنتم، أنتم في رعايتي وفي كلاءتي"

ثم يبرر هذا المبررون أمام من ينكر على صاحب هذا القول قوله فيقول الطوسي: " أنه إذا قال أنا فإنه يعبر عن وجده ويترجم عن الحال الذي استولى على سره، فإذا قال: أنا يشير بذلك إلى ما غلب عليه من حقيقة صفة مشاهدته قرب سيده"

وإذا كانت هذه الأقوال سيئة فإنه التبرير لها أشد سوءًا، وهو محاولة لتمرير هذه الأقوال القبيحة " كثيرًا ما تُروى أقوال وأفعال مستقبحة مخالفة للشريعة منسوبةً إلى مشايخ التصوف ورموزه في القديم والحديث، وكُتُبُ الصوفيةِ أنفسهم مملوءةٌ بذكر هذه الأقوال والحكايات، كما في كتاب (الطبقات) للشعراني وغيره من مدونات الصوفية، وقد اصطلح الصوفية على تسمية هذه الأمور الصادرة عن مشايخ التصوف بـ (الشطحات)، وهو الاصطلاح الذي استخدمه المتصوّفة لرد إنكار الفقهاء والعلماء على أحوال الصوفية المخالفة للشرع أو تخفيف حِدّته، باعتبار صاحبها قد (شطح) فلا ينبغي لومُه على ذلك أو الإنكار عليه، بل ينبغي أن يُسَلَّم حاله إليه.

ولا شك أن الفقهاء لم يرتضوا هذا الكلام؛ لأنه في حقيقته يفتح باب الزندقة والطعن في الدين، ثم يتظاهر الزنديق بأنه من أصحاب الأحوال والأذواق، وأنه لا يجوز الإنكار عليه! وهذا ما حصل في الواقع، فكثير من الزنادقة ودعاة الحلول والاتحاد الذين أجمع العلماء على زندقتهم تم تمرير كلامهم الباطل وتسويغ فعلهم المنكر باعتباره من الشطحات.

فتَحْت مصطلح (الشطح) يتمّ تسويغ كل الكلام الكفري والأفعال المستقبحة؛ فكانت هذه الشطحات أحد أسباب الخلاف التاريخي بين الفقهاء والصوفية، وهو في حقيقته صراع بين دعاة الالتزام بالشريعة والرجوع للكتاب والسنة في العلم والعمل والسلوك، في مقابل دعاة التحلّل من قيد الشريعة بزعم الوصول للحقيقة."[1]

وقد تعجبت لكلام شيخنا العلامة الدكتور محمد رجب البيومي وتبريراته لأخطاء بعضهم في كتابه أشواق العارفين، الذي قال في تقديمه ابتداء: " والتصوف الصحيح هو ثمرة علم الأخلاق الإسلامي ويقوم على دعائم راسخة من توجيه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وسير السلف الصالح ممن اجتباهم الله برعايته، فكانوا قدوة المهتدين، ومنارة السائلين، فإذا دلت مظاهر منحرفة من بعض أدعياء التصوف على ما يخالف اتجاه الهداة المرشدين، فهم من التصوف الحقيقي بمكان بعيد"

قال هذا رحمه الله، ثم نراه بعدها يبرر في تفسيرات وتأويلات بعض كلمات ابن عربي وعباراته التي تجافي حقيقة الشرع، ثم يعترف في النهاية ويقول: ولا شك أن هذه من شطحاته، يقول:" وانبرى ابن عربي يوزان موازنة جريئة بين النبي والولي، ثم أعلن في غير تريث، أن الرسول لا يمتاز إلا بالتشريع، أما الولي فميزته الكبرى هي الاطلاع على أسرار الوجود، وهذا ادعاء ولكنه من شطحات الرجل"[2]

الحقيقة المشوهة ؟

يقول الأستاذ محمد فريد وجدي: (يجب أن نعذر الأوروبيين إذا صدَّقوا جميع الأكاذيب الملفقة عن الإسلام والمسلمين، وهم غير ملومين إذا أظهروا

[1] - الشطح الصوفي عرض ونقد للباحث شريف طه- موقف سلف
[2] - أشواق العارفين- دكتور محمد رجب البيومي

العداوة لديننا، ما داموا لا يجدون نصب أعينهم غير مشاهد البدع التي أحدثها رجال ذوو فكر سقيم، وارتضاها الناس وزادوا عليها وما إلى ذلك من الهرطقات والأخطاء المتنافية مع الطبيعة البشرية ومع نواميس المدنية، وكيف نرجو أن يفهم الأوروبيون روح ديننا نفسها وهو الدين الوحيد الذي يكفل السعادة الكاملة ما داموا لا يعرفون غير بعض مظاهر الإسلام الخارجية التي يشهدونها كل يوم مثل الحشود الضاجَّة في الشوارع السائرة خلف الرايات والطبول، والاحتفالات المستهجنة المنافية لكل منطق أخلاقي والتي تقام في جميع مدن مصر يوم مولد الرسول، وعقد حلقات الذكر الضخمة أمام جمهور يتألف من آلاف الناس، وإرسال الابتهالات الصوفية في صوت جَهْوَري وعلى وقع الانحناءات ذات اليمين وذات اليسار وما شابه ذلك؟)[1]

إن صوفية اليوم غير صوفية الماضي، التي كانت تؤمن بالجهاد، ومقاومة الظلم والفساد، والتصدي للمستعمرين وأشباههم من حكام الجور وولاة الظلم، والأمثلة شاهدة وكثيرة، والتاريخ يعج بسير رجالها المرابطين المجاهدين، الذين كانوا غُصة في حلق المستعمر البغيض، وأعوانه من الظلمة، و الجبارين.

أما صوفية اليوم.. فقد جافت هذه الحقيقة، وضمت إليها كثيراً من الجهلاء المخرفين المتواكلين المنبطحين، الذين نشروا البدعة والخرافة، وخرجوا بها عن صحيح الدين وفهمه السليم.

إنهم غالبهم يتسمون بالذل والخنوع والانصياع للقهر والاستسلام والانهزامية والهروب، وترك المجتمع يحترق بما فيه من فجور وانحراف، بحجة العزلة والإعراض عن الفتنة..

[1] - كتاب (دفاع عن الاسلام) الكاتب لورا فيشيا فاغليري

يريدون ترك الإسلام وحيداً في المعركة ضد مذاهب الفجور والإلحاد الأرضية، التي تريد القضاء عليه ومحو حقيقته.

إن صوراً منهم، ترى أن قول الحق في وجه الجائرين والتصدي للفاسدين، ضرب من الغلو والتشدد، وخروج على ولي الأمر.! والحق أن أمثالهم لا يقوم على أيديهم نصر أو عز للإسلام ، وإنما الهزيمة في ركابهم معقودة مأمولة.

لقد أوجد الصوفية الغلاة صوراً للعبودية لم يأت بها الله تعالى، أو يقرها في شرعه، يدفعهم إليها الجهل والعزوف عن العلم، والفهم الصحيح.

لقد تحول الطريق على أيديهم؛ وتغيرت وجهته، وانقلبت الحقائق والموازين، وصار الدراويش والمجاذيب والبله وأصحاب الخرافة؛ أربابه وأقطابه، حتى من لديه بصيص أمل منهم ؛ لا يعرف إلا أن يحصر نفسه في المحراب، يريدون الوصول إلى الله تعالى من خلاله، فهو الطريق ولا طريق سواه، أما دينه وما يواجهه من هجمات ومؤامرات، فلا شأن لهم بهذا؛ فالله تعالى هو المقصود والمأمول، ولعمري كيف يصل هؤلاء الحمقى لجناب الحق تعالى، وهم يهملون دينه ويتركونه بين مخالب الكفرة، ولا يزودون عن حياضه؟!

أولا يعلمون أن واجبهم الأول نحو دينهم وربهم؛ أن يتركوا المحراب، ويهبوا لنصرة الدعوة، والعمل لقيام دولة القرآن، وأن يبذلوا في سبيل ذلك النفس والنفيس.

انظر لصورة الصوفي الحق.. كيف يوضحها لك الشيخ الألمعي اللوذعي طنطاوي جوهري رحمه الله ..لله ما أجمل فهمه، وما أجل استيعابه.

يقول الأستاذ محمود عبد الحليم: (دخل عليّ الرجل العظيم وأنا جالس في شرفة المركز العام بعد الظهر وحدي؛ أقرأ أرجوزة في التصوف، وقمت من مكاني، وتلقيته بما يتناسب مع

مقامه، وأعددت له مقعداً بجانبي، فابتدرني سائلاً ماذا تفعل؟ فأجبته، فقال لي: إنها أرجوزة جميلة في التصوف، اقرأها عليّ فأخذت أقرأها فقال لي: ما هكذا يقرأ الشعر يا بني قلت: هل لحنت في شيء مما قرأت ؟ قال: لا إنك لم تلحن؛ ولكن ما هكذا يقرأ، قلت: إذن فكيف يقرأ؟ قال: هل كانوا يقرؤونه في سوق عكاظ كما تقرأه؟ قلت: إذن فكيف كانوا يقرؤونه؟ فتناول الكتاب وأخذ يقرأه بنغمة حلوة كأنه يغنيه ثم قال: لا معنى للشعر إذا لم يقرأ بهذه الطريقة، ولذا فإنهم كانوا ينشدون الشعر لا يقرؤونه، أليس الشعر موسيقى؟

ثم قال لي عندما وصل في الأرجوزة إلى أبيات تتحدث عن الحجب والكشف: انصت إليّ يا محمود، فأنصت إليه فقال: إن الرجل ليأخذ نفسه بأساليب الرياضة النفسية، فيرقى من درجة إلى أخرى، حتى يدرك أسمى درجات السمو فيصل إلى درجة الكشف، حيث ينكشف له الكون، لأن أهل الكشف لا ينتفع بهم الناس، أما هؤلاء فينتفع بهم خلق كثيرون، بل تنتفع بهم أمم ينقلونها من حال إلى حال... قال: واعلم يا بني أن من هذا النوع من الرجال؛ الرسل فموسى أعلى درجة من الخضر، وسليمان أعلى درجة من الذي عنده علم بالكتاب، ومنهم كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ومنهم كبار المصلحين.

ثم ذكر له أحد المصلحين الكبار في ذلك الوقت وقال محمود: وكيف عرفته؟

قال: سمعت عنه فذهبت إليه وجلست معه وسألته: إلام تدعو؟

قال: أدعو إلى القرآن.

قلت: دع هذا اللفظ الكريم من حديثنا؛ فإن هذا اللفظ الكريم مظلوم ظلماً بيناً، لقد انتحله الجميع وانتسبوا إليه؛ ما من فرقة قامت في الدولة الإسلامية – مهما كانت زائغة عن الإسلام – إلا وادعت أنها تدعو إلى القرآن، فأجبني بتفاصيل ما تدعو إليه في كل ناحية من نواحي الحياة، قال: فشرح لي تفاصيل دعوته فوجدتها في حدود كتاب الله.

قال: ثم رأيت في الشاب وآرائه وفهمه لكتاب الله، وإحاطته بالتاريخ، وفهمه للمجتمع الذي نعيش فيه، وذكائه وألمعيته وشخصيته الأخاذة، ومقدرته على جمع الناس على دعوته، وصبره على المكاره، وتعففه عما في أيدي الناس، وبذله في سبيل دعوته، ولين جانبه، وتواضعه، بحيث لا تكاد تميزه من أتباعه؛ ثم قال: رأيت فيه صفات القائد الذي يفتقده العالم الإسلامي."

كانت هذه نظرة حكيم الإسلام طنطاوي جوهري.. أن المناضل للإسلام أعلى درجة من أهل الكشف.

يمثل المسلسل التركي الشهير (قيامة أرطغرل) ثورة كبيرة قدمتها الدراما التركية حيث بلغت نسبة المشاهدة حسب آخر الإحصاءات إلى 200 مليون مشاهده، وهو عمل رائع وحافل بكثير من القيم والمعالم والمعاني والإشارات الهامة التي تهدف إلى تصحيح المفاهيم وتصويب التاريخ والحفاظ على الهوية والاعتزاز بالانتماء الإسلامي والتنويه بالمخاطر والمؤامرات التي تحيط بالأمة ومشروعاتها النهضوية المستقبلية، لقد جذب المسلسل عشرات الملايين، وتحدث عنه العالم، وشغف برؤيته الكبار و الصغار، واستطاعت تركيا من خلاله أن تغزو الإعلام وتسخره لخدمة طريقها وهدفها وحزبها وتوجهها وتراثها وانتمائها الإسلامي، وبجانب تصويرهم للحلم الإسلامي وما يكتنفه من عقبات وطموحات ومؤامرات وانتصارات، كان بجوار ذلك كله تصحيح كثير من المفاهيم والأفكار والحقائق التاريخية، التي أصابها العوج والتلفيق وشابها الانحراف في الرؤية والتصور، فخرجت بها عن حقيقتها وأصلها إلى أوهام مغلوطة وأفهام منحرفة.. ولعل أبرز هذه الأفكار والمفاهيم التي يقوم المسلسل بتصحيحيها نظرته للتصوف الإسلامي، الذي تم تشويه حقيقته وتزييف طبيعته وطرائقه وأصوله، التي قامت على الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى

النضال والكفاح، وقيادة المقاومة المسلحة ضد الأعداء والغزاة، هذه الحقائق الأصيلة في تاريخ التصوف والتي استطاع الاستعمار وأذنابه والمستبدين وذيولهم، أن يبدلوها ويطمسونها، حتى لا يوجد هذا النوع من الجهاد، ولا يوجد هذا النوع من المجاهدين، الذين هم أخطر أنواع وأصناف المجاهدين، لأنهم باعوا الدنيا وزهدوا في متعتها وصارت قلوبهم لا يتربع عليها إلا حب الله وحده.. لقد استطاع الحاقدون أو يلغوا هذه الحقيقة، وينشئوا تصوفًا جديدًا غريبًا جبانًا منبطحا سلبيا ذليلا، لا يعرف معنى الجهاد والنضال والكفاح، ويرفض كل ألوان المقاومة، ويعتبرها إرهابا ليس من الدين، وينظر للعمل السياسي الإسلامي على أنه تعلق بالدنيا، ولهث وراء السلطة، فشجعوا البدع والخرافات، ودعموا البُله والمشعوذين، وروجوا للخزعبلات وأقاموا الموالد وأنفقوا عليها حتى تطغى هذه الصورة المنكرة في عالم التصوف، على الحقيقة الأبية التي حفر التاريخ قصتها الناصعة في سجلاته..!

ولعل هذه الصورة التي أسس لها الاستعمار، وروجها لها المستبدون، حاول الأتراك عبر المسلسل الشهير أن يكشفوا عنها اللثام ويعيدوها إلى أصولها، ويقرروا حقيقتها، ويروا هذه الصورة القميئة المنحرفة، التي ظهر بها التصوف في عصرنا الحاضر، فابن عربي القطب الصوفي الشهير، الذي انشغل به السطحيون هل هو ابن عربي الصوفي أم ابن العربي القاضي الإشبيلي المالكي؟!، وهل لقي أرطغرل أم لم يلتق به، وسواء كان أم لم يكن، فالموضوع ما هو إلا صورة رمزية للتصوف المرتبط بقضايا الأمة، الملامس لهمومها وأزماتها، فها هو نراه يسيح في المشارق والمغارب، يبحث ويحاول أن يجد البطل الموعود، الذي ينقذ العالم الإسلامي، ويقوده للنصر

المبين على أعدائه، ومن جهة أخرى، يطبب الجرحى الذين تُصيبهم ضربات الأعداء، ويجتهد في إشفائهم حتى يعودوا لساحة المعركة من جديد، بل يُمثل المرشد الواعظ كلما ألم اليأس والقنوط بالمجاهدين، فيذكرهم بالصبر ويحفزهم بالإيمان بل يشترك في بعض العمليات القتالية، ويسهم بدور كبير في دفع المناضلين وتحفيزهم ومناقشة الأوضاع السياسية، كل هذه الأمور تناولها المسلسل كمحاولة قوية لتصحيح مساره، ورده للحقيقة الراقية التي كان عليها من قبل، والتي حاول الحاقدون تبديلها ليطفوا على السطح، ذلك التصوف الخائن العميل المنبطح الجبان.!

المصريون والمجاذيب

بكل بساطة وبلا فلسفات أو إغراق في التأويلات والتفسيرات، يمكننا أن نفسر السبب الأكبر وراء انتشار التيار الصوفي في مصر قديما.

ماذا يحدث حينما يتعرض الإنسان لجور أو ظلم، ولا يجد حوله من ينصره وينصفه؟

لا شك أنه يندفع بمشاعر الضعف والالتجاء إلى القوة الإلهية القاهرة، فيلجأ إلى الله سبحانه، يطلب نصره وتأييده.

هكذا وعلى هذا النحو، كان أغلب الأسباب في شيوع التصوف وانتشاره في مصر تحديدا.!

فهذا الشعب المسكين، كان من أكثر الشعوب التي تعرضت للظلم والقهر من الحكام أو المستعمرين، وحينما نفدت طاقاتهم في المقاومة ورد الحق، وبدا لهم ضعفهم وقلة حيلتهم، فلم يجدوا أمامهم غير التصوف طريقا وملجأ، بل ملاذا يحتمون به.

وهذا كما قيل ووصف ليس أمرا غريبا، بل هو طبع إنساني لفت لأصله القرآن الكريم في قوله تعالى: (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا)

الضعف إذن والشعور بالقهر والاحتياج، هو الذي دفع جموعًا غفيرة أن تنضوي تحت لواء التصوف، هربا وتسلية مما أصابها من الأذى.

هناك من الأكيد عوامل أخرى أسهمت في انتشار هذا التيار، كتأييد الأنظمة والحكومات لمساره، وتحفيزهم على بعثه وحضوره.

لكن انتشاره قديما في مصر، كان يرجع في الغالب إلى الظلم المتفشي، ليكون من أكبر وأكثر دواعيه.

ففي التصوف إلهام بالقناعة والصبر والتحمل والرضا بالفقر والاحتياج، وترضية للنفس أمام ما وقع عليها وأصابها من ظلم.

فهو إذن.. كما وجد فيه كثير من المصريين، راحة من الهموم، وسبيلا يدفعهم على تحمل البلاء والشقاء.

وقد جاء وقت كلما أمعن الحاكم في الظلم والجبايات، كلما كان ذلك دفعا لنشاط التصوف وزيادة حضوره.

ولعله كذلك وبصراحة، كان هروبًا من مواجهة الطغيان، ورضا بالهوان، وحجة تقنع الضعفاء بما اختاروه من الهروب والانزواء.

وقد صحب هذا الانتشار آفات مهلكات، كان أضخمها ضياع العلم، الذي خلف انتشار الجهل، وسيادة الخرافة، وتربع الأضاليل.

ولعل العقيدة هي أول ما يصيبها الجهل والضلال في مقتل، فيسودها الغي بدل الهدى، ويعلوها الجهل على العلم، ويعمها الزور على الصدق، ويستبد بها الخرف على الحكمة والرشاد.. لا أحد يعرف حتى اليوم، لماذا يعتقد المصريون ولاية الله في البله والمجاذيب، وغرامهم بأحوالهم وهيامهم بقلة عقلهم.؟

كتبت عن هذا الحال مقالا قديما، فظن القاصرون أني أعير أهل البلاء، وما درت عقولهم المظلمة المأفونة، أني أصحح العقيدة، وأقيم الدين، وأحفظ الشريعة، وأحرر العقل، وأحارب الجهل.!

فهذا رجل ابتلاه الله بالجنون وضياع العقل عافانا الله وإياكم، والحمد لله أن عافانا بما ابتلى به غيرنا، لكنه لا يعرف شيئا من أمور الحياة، لا يميز ما يضره مما ينفعه، لا يدرك معنى الصواب من الخطأ، ولا يعرف لمحة من أمر دينه وخالقه ورسوله، يهذي ليل نهار، يخلط الجد بالهزل، يزوغ بين الحقيقة والخيال، يصرخ تارة ويضحك تارة أخرى، يأكل القمامة، ويتغوط أمام المارة، ويسب الناس، وأمام هذا التيه، يولع المصريون من قديم الزمان، بتعظيم هؤلاء المبتلين، وتصر طائفة كبيرة من عوام الصوفية الجاهلة الأفاكة، على ترقية هؤلاء لمراتب الولاية الكبرى، فيتبركون بهم ويتمسحون، ويطلبون منهم المدد وبهم يدعون، ويقدمون لهم النذور وبهم يحلفون، وإذا ماتوا قدسوهم وبنوا على لحودهم الأضرحة، وأقاموا على قبورهم الموالد والزينات، وشدوا الرحال إلى زيارتهم والتوسل بهم من دون الله.!

يسير هذا المبتلى المسكين في الطرقات، ممزق الثياب، مكشوف العورة، فتعلق به النجاسات، وربما يتبول على نفسه، وبدلا من حمد الله الذي عافانا من حاله، ونجانا من بلائه، والمسارعة لعلاجه وإصلاح شأنه، والإدراك بأن الإحسان إليه يجلب رحمة الله، من باب قوله صلى الله

عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم)[1] تنبت في الأذهان هذه الفكرة الشيطانية العجيبة، التي لا سناد لها من شرع، ولا أخبر بها دين، ولا حثت عليها سنة، فتعظم المبتلى ليكون قبلة القصاد، وبركة البركات، ومقصد الضائعين وطلاب الحاجات، وجه من وجوه التجني على العقيدة.

وهكذا الجهل يقلب الموازين، ويسئ للدين، حينما يسود الضلال والمخرفين، وهكذا التصوف البدعي، يوم أن يتزعمه الجهلة، ويسيرون فيه بأهوائهم، فيفسدون عقيدة الناس، مستغلين ضعف عقولهم وقلة علمهم.

منذ مئات السنين، وعلى مر عقود طويلة، تنتشر هذه العلة في المصريين، ولا يعلم لماذا هم وحدهم دون بقية شعوب الأرض، يصرون على هذا الهراء، الذي يفسد العقيدة، ويحيي فيها جوانب الشرك.؟!

انظر وعش معي ما يحكي الجبرتي العظيم في تاريخه فيقول في ذكر من مات عام ١٧٩٢:

ومات المجذوب المعتقد السيد علي البكري، أقام سنينا متجردًا، ويمشي في الأسواق عريانا، ويخلط في كلامه، وبيده نبوت طويل يصحبه معه في غالب أوقاته، وكان يحلق لحيته، وللناس فيه اعتقاد عظيم، فينصتون إلى تخليطاته، ويوجهون ألفاظه، ويؤولونها على حسب أغراضهم، ومقتضيات أحوالهم ووقائعهم!

وكان له أخ من مساتير الناس، فحجر عليه ومنعه من الخروج، وألبسه ثيابًا ورغب الناس في زيارته، وذكر مكاشفاته وخوارق كراماته، فأقبل عليه الناس من كل ناحية، وترددوا لزيارته من كل جهة، وأتوا إليه بالهدايا والنذور، وجروا على عوائدهم في التقليد.

[1] - البخاري

وازدحم عليه الخلائق وخصوصًا النساء، فراج بذلك أمر أخيه، واتسعت دنياه، ونصبه شبكة لصيده، ومنعه من حلق لحيته، فنبتت وعظمت، وسمن بدنه وعظم جسمه، من كثرة الأكل والراحة، وكان قبل ذلك عريانًا شقيانًا، يبيت غالب لياليه بالجوع طاويًا من غير أكل، بالأزقة في الشتاء والصيف، وقيد به من يخدمه ويراعيه، في منامه ويقظته وقضاء حاجته، ولا يزال يحدث نفسه ويخلط في ألفاظه وكلامه، فتارة يضحك وتارة يشتم، ولابد من مصادفة بعض الألفاظ، لما في نفس بعض الزائرين وذوي الحاجات، فيعدون ذلك كشفًا واطلاعًا، على ما في نفوسهم وخطرات قلوبهم، ولم يزل هذا حاله حتى توفي، فاجتمع الناس لمشهده من كل ناحية، وعملوا على قبره مقصورة ومقامًا يقصد للزيارة، واجتمعوا عند مدفنه في ليال وميعادات، وقراء ومنشدين، وتزدحم عنده أصناف الخلائق، ويختلط النساء بالرجال."

وليت الأمر وصل عند حد أهل الأعذار، وإنما امتدت الخرافة حتى بلغت في الناس مبلغها، حين تبركوا حتى بالحيوان الأعجم.

فقد سيطرت على المجتمع المصري في فترتي العصرين المملوكي والعثماني خرافات وأساطير، كانت ينسجها بعض الخبثاء والنصابين، مستغلين سذاجة الناس وضحالة وعيهم، ومستهدفين من وراء ذلك ما في جيوب البسطاء.. وقد استيقظت القاهرة ذات صباح على قصة خرافية تزعم أن عنزة صعدت فوق مئذنة مسجد السيدة نفيسة، وأخذت تكلم الناس وتحضهم على فعل الخيرات، وتحذرهم من ارتكاب الموبقات.

وبحسب ما روى جمال بدوي في كتابه «مصر من نافذة التاريخ» تطورت القصة، بعد أن تناقلها الناس فأضافوا إليها بعض التوابل والمشهيات، واكتملت لها عناصر الإثارة والتشويق، واستقرت القصة في الشارع المصري على النحو التالي كما رواها المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي.

يروي الجبرتي أن بعض الجند المصريين، وقعوا أسرى للحرب في بلاد الفرنجة، وذات يوم اشتروا عنزة ليذبحوها في مجلس الذكر الذي عقدوه قرباناً إلى الله كي يفك أسرهم ويعيدهم إلى ديارهم، ولكن الحارس القائم على أمرهم أبى عليهم ذلك واستولى على العنزة ومضى بها إلى بيته.

وعندما آوى الحارس إلى فراشه، رأى في منامه رؤيا مزعجة، فأدرك على الفور أن العنزة مباركة، فلما أشرق الصباح، أعاد العنزة إلى الجند ثم أطلق سراحهم، وزودهم ببعض المال كي يستعينوا به على الرحيل إلى بلادهم، فاستقلوا مركباً إلى مصر، ومعهم العنزة المباركة

فلما بلغوا القاهرة، ذهبوا من فورهم إلى مسجد السيدة نفيسة، وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها، وفي الصباح وجدوا العنزة قد اعتلت المنارة، وسمعوها تكلم الناس.

وكان للمسجد خادم ذكي اسمه الشيخ عبداللطيف، والذي أدرك الفائدة العظمى التي ستعود عليه من ترويج قصة العنزة، فأشاع بين رواد المسجد أن السيدة نفيسة خاطبته من مقصورتها وأوصته بالعنزة خيراً.

وذاعت الخرافة بين أهل القاهرة، فتوافدوا على المسجد لرؤية العنزة والتبرك بها، والتبرع لها بما تجود به أريحيتهم، وانفتح باب الرزق الواسع أمام الشيخ عبداللطيف، فوضع تسعيرة محددة لكل درجة من درجات القرب من العنزة أدناها الرؤية المجردة، وأعلاها المسح على جسمها والحصول على بركاتها.

وانهالت الهدايا والنذور على الشيخ عبداللطيف، فكان يخبرهم بأن العنزة لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق، ولا تشرب إلا ماء الورد المحلى بالسكر المكرر، فيحمل الناس إليه أطناناً من هذا وذاك، حتى تكدست لديه أكوام من أطايب الطعام والشراب.

وبلغت القصة مسامع الأميرات وزوجات الكبراء والقادة، فكن يتسابقن إلى صنع القلائد الذهبية والأقراط والأساور، ويبعثن بها إلى الشيخ عبد اللطيف، ليزين بها جسد العنزة المباركة.

وكان الأمير عبدالرحمن في عصر علي بك الكبير، من أشد الأمراء حزماً وحسماً، وأكثرهم وعياً ورفضاً لهذه الخزعبلات، فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يرجوه أن يتعطف بزيارته في قصره وبصحبته العنزة، حتى يتمكن أهل بيته من رؤيتها والتماس البركة منها.

سعد الشيخ بهذه الدعوة التي ستفتح أمامه قصور الأمراء والكبراء، وحدد يوماً لهذه الرحلة الميمونة، فتجمع أرباب الطرق الصوفية في موكب مهيب لمصاحبته من مسجد السيدة نفيسة إلى قصر الأمير المجاور لمسجد أحمد بن طولون.. بلغ الموكب باب القصر، فنهض الأمير هو وضيوفه من العظماء والوجهاء، لاستقبال العنزة المباركة، واستأذن الأمير في أن تمضي العنزة إلى جناح الحريم، فرحب الشيخ عبد اللطيف، وأعطاه العنزة فحملها الخدم على المطبخ حيث انهالت عليها سكين الجزار، فذبحتها وسلختها وتسابق الطباخون إلى سلقها وتحميرها، بينما اتخذ الشيخ عبد اللطيف مكانه في صدر المجلس يروي للأمراء مزيداً من الخرافات عن كرامات العنزة.. وحان موعد الغذاء، فأمر الأمير ببدء الوليمة، فدخل الخدم يحملون أطباق الفتة تعلوها قطع اللحم الشهي، وانهالت أيدي الأمير وضيوفه تنهش أطايب اللحم، وبين الحين والحين، كان الأمير يحث الشيخ على تناول المزيد من اللحم، والأمراء من حوله يتغامزون، ويكتمون ضحكاتهم، حتى فرغوا من الطعام وشرب القهوة، فنهض الشيخ عبد اللطيف مستأذناً في الانصراف ومعه العنزة، فقال له الأمير عبد الرحمن: أي عنزة تقصد؟ فقال خادم المسجد: العنزة المباركة التي دخلت جناح الحريم، فقال الأمير: العنزة لم تدخل جناح

الحريم مطلقاً، ولكنها دخلت بطنك يا كاذب، يا فاجر، يا أفاق، وهذا دليل على ضلالك المبين.

ارتعب الرجل من هول المفاجأة التي وقعت على رأسه كالصاعقة، وحاول الإفلات بجلده، ولكن الأمير أمسك به، وأمر مماليكه بضربه ستين عصا على رجليه، ثم جاء بجلد العنزة فطرحه على عمامته، وطاف به الجند شوارع القاهرة، ليكون عبرة لغيره من الذين يحتالون على الناس بالأساطير التي تستغل عواطفهم الدينية.

لا تقدسوا شيوخكم !

أتعجب كل العجب من أتباع الصوفية الضالة، الذين ينزلون شيوخهم منزلة لم يرتق إليها النبيون والرسل، ويغالون في تقديسهم إلى درجة ربما تفوق تقديس النصارى للمسيح..! ربما يحبونهم ويقدرونهم، ولكن لماذا هذا الغلو العنيف وهم بشر كالبشر، لم يكتب الله عصمتهم أو يؤكد حصانتهم.. ندرك أنهم أولياء الله وأحبائه ودعاته وأهل طاعته.. ولكن هذه العصبية لذواتهم، ينكرها الشرع ويرفضها الدين، الذي يعلن ويقرر أن الولاء للحق أولا وأخيرًا.

إنهم وللأسف يتعصبون لهم ويُعلون مقامهم حتى ولو كانوا على غير الحق والهدي القويم ، بل إن من الدواهي أن يتحول الباطل إلى حق، والبدعة إلى سنة، والخرافة إلى دين، لا للجهل بها، ولكن لمجرد أنها من سلوكيات الشيخ، الذي يضعه صاحبه موضع القديسين، وفي رتبة توازي رتبة الوحي، فهو في نظره حكم على الدين والشريعة، والفرق بين الحق والباطل، وهو الدليل على الدليل، والبرهان على البرهان.!

ولا زلت أتذكر بعض المتصوفة ممن سمعت منهم تفسيرهم لقصة نبي الله موسى والخضر عليهما السلام، الواردة في سورة الكهف، حيث قالوا فيها: إن الولي يفوق النبي رتبة وعلما ومقاما من الله، حيث فاق الخضر وهو الولي، على موسى الذي هو النبي، ولما رجعت إلى

التفسير وطالعت (كتاب الزهر النضر في أخبار الخضر) للحافظ بن حجر العسقلاني. وجدت أن الخضر على قول الجمهور نبي من أنبياء الله..!

ولعل هذا المرض تحديدًا لم يختص به الصوفية وحدهم، وإن كان فيهم أكثر شيوعًا وأكثر تطرفًا وجنوحًا للغلو، حيث نجده كذلك في كثير من الجماعات الدينية والمذاهب والنحل، حيث يصر الأتباع على جعل الشخوص، محور التقييم وفيصل التفرقة، ونواة الدعوة ومدار الحركة والتوجه، فيدخلون في عباءتهم ليحتجبوا بها عن ضوء الشمس، الذي يريهم الحقائق ويرشدهم لماهية الصواب، ثم تتم الرواية فصولها الأثيمة، لو أنها صادفت هذه العصبية شيوخًا معجبون بأنفسهم ولديهم إمكانات وقدرات ومواهب، تشعل عصبية العامة، وتزيد من قناعتهم بغيهم وغلوهم فيهم، وقد نهى رسولنا العظيم صلى الله عليه وسلم عن هذا في قوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم)[1] أي لا تمدحوني وتغالوا في مدحي حتى تصلوا بي إلى مراتب الألوهية، وكانت هناك امرأة تقول : وفينا نبي يعلم ما في غد.. فنهاها عن ذلك، لأن علم الغيب ملك لله وحده.!

إن التعصب للأشخاص والأفراد شيء مقيت مذموم، والصواب أن نتعصب للحق وحده الذي رفع هؤلاء وجعل لهم قيمة، حتى إذا تغير بهم الزمان، ودارت بهم دورة الآراء فحادوا عنها وتبدلت وجهاتهم، يبقى الحق وحده قائمًا عزيزًا منتصرًا، ولعل أكثر ما يساعد على تقديس الأفراد هو الجهل، الذي يخاصم الفهم ويقتل الوعي، ويعمي عن التقييم الصحيح للأمور، وأصحاب الدعوات يجب عليهم أن يتنبهوا إلى هذا الداء العضال، الذي إن استشرى في صفوف أتباعهم، فإنه يقود للضياع والانحراف والتطرف، والفتن العاصفة التي تقضي على أي كيان مهما عظم حجمه وقدره.!

[1] - البخاري والدارمي وأحمد

إن هوس التقديس للأشخاص حالة مرضية، وغلو تنتشي له نفوس المرضى وهو عين الضلال، والحق دومًا هو المنهاج والميزان الذي نزن به كل شيء من الأفكار والدعوات والأفراد، وهو تماما ما عناه علي رضي الله عنه حينما قال: (اعرفوا الرجال بالحق ولا تعرفوا الحق بالرجال..!)

لقد كان (حسن البنا) رحمه الله واحدا من هؤلاء الوقافين على خطر هذا الداء العضال على الدعوة والداعية، ومن ثم كانت له مواقفه الشجاعة الحازمة التي قضت على هذا النوع من المغالاة في شخصه وإمكاناته، وعلم أصحابه أن الولاء للحق وحده لا لفرد أو إمام، ففي مؤتمر الطلاب للإخوان المسلمين الذي انعقد في القاهرة عام 1938 حين وقف حسن البنا يخطب، فتحمس أحد مريديه من الطلاب فهتف بحياة حسن البنا – ومع أنه لم يردد الحاضرون هذا الهتاف – إلا أن (حسن البنا) وقف صامتًا لا يتحرك برهة، فاتجهت إليه الأنظار في تطلع .. ثم بدأ حديثه في غضب وقال:

أيها الإخوان.. إن اليوم الذي يهتف في دعوتنا بأشخاص لن يكون ولن يأتي أبدًا، إن دعوتنا إسلامية قامت علي عقيدة التوحيد، فلن تحيد عنها، أيها الإخوان لا تنسوا في غمرة الحماس، الأصول التي آمنا وهتفنا بها (الرسول قدوتنا) (إن الله وملائكته يصلون علي النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)

وحين جاء أحد المتكلمين في الحفل، وقد كان من المتحمسين لنشر دعوته، قام متحدثًا إلي الناس فقال : إن مثلنا الآن من فضيلة الأستاذ المرشد وهو يشير إليه ، كمثل رسول الله صلي الله عليه وسلم بين أصحابه، وما كاد المتحدث ينتهي من هذه العبارة حتى قفز (حسن البنا) إلي المنصة واتجه إلي الناس قائلاً :

أيها الأخوة معذرة إذا كان الأستاذ المتحدث قد خانه التعبير، فأين نحن من رسول الله صلي الله عليه وسلم، ثم نزل إلي مكانه ولم يستطع الأستاذ المتحدث إكمال الحديث كما بدأه.

يقول الأستاذ عباس السيسي:

"لم يكن في استطاعة " البنا " السكون علي هذه التصرفات، ذلك أنها كانت تمس الأصل الكبير الذي قامت عليه دعوته وجماعته، فقام ليعذر إلي الله في التو واللحظة، ويقطع مسلكًا من مسالك الانحراف في طريق الدعوة وأساسها الرباني، فهو الذي علم أتباعه أن لا يهتفوا باسم أحد إلا الله، ولا يعظموا شخصا ولا يحيوا إنسانا، إنما تحيتهم لله سبحانه وتعالي .. تحيتهم هتاف لله وحده..) هذا ما صنعه الأستاذ لتلاميذه، رباهم على حب الدعوة، ولم يربهم على حب أفراد الدعوة..)

ولعل بعض أتباع هذه الحركة في الآونة الأخيرة، نسوا أو تناسوا هذا الدرس الكبير الذي أكد عليه داعيتهم حسن البنا مرارًا وتكرارًا، فنرى كثيرًا منهم يتعصبون للأشخاص لدرجة مستفزة، حتى لو طال أن يحجز لمربيه ومعلمه مكانًا على سطح القمر أو بين النجوم لفعل، ورغم أن الأيام تصفعهم كثيرًا بمواقفها فيمن كانوا يعظمون ويعتقدون، إلا أن هذه الحالة المرضية، مازالت تشوب الكثيرين منهم، ممن يصرون على معاملة شيوخهم بنوع من القدسية والتعظيم المفرط.!

والملفت في الموضوع أن أصحاب كل تيار قد لا يرون ذلك في أنفسهم ويرونه في غيرهم، من أصحاب التيارات الأخرى، ذلك لأنه يعتقد أنه ينزل شيخه في منزله الطبيعي والواقعي الذي يوائم حاله، أما غيره فيتجاوز المنطق في تكريم شيخه.. وكذلك السلفي والصوفي وصاحب كل مذهب، ينكر على غيره علو مشائخه بينما لا يرى ذلك من نفسه في شيخه ومربيه.!

أيها المحبون والمريدون لا تقدسوا شيوخكم، وادعوا لهم بالثبات على الحق، الذي لا يكون الولاء إلا له أولا وأخيرًا.!

غرائب صوفية

هنا كلمة لابد من التنويه عليها وإيضاح مغزاها، هناك في بلاط الصوفية، ومن أنواعهم كما ذكرت طائفة كبيرة تدعي وتعلن دوما: أنها على الكتاب والسنة، ومقيدة بالشرع، ولا تخرج أو تخالف أحكام الله.

يذكرون أقوالا في الاتباع، لم يقلها علماء السلفية أنفسهم، في روعتها وجلالها وجمالها.

كلمات تجعلك تشعر معها، أنك فعلا مع أهل الحق، وسادة الهدى، وحينما يدفعك الشوق في صحبتهم، والتوغل في ثنايا كتبهم، ترى العجب العجاب، والغرائب التي لا يستقيم معها فكر أو عقل، لتجد أمورًا لا تخالف الدين فقط، وإنما تخالف المنطق والعقل.

وهي ليست من الكرامات في شيء، ففيها أمور سخيفة هزلية لا تقبلها العقول الدينة الرشيدة.

ونحن كذلك نعلم هذا الخلط بين دعوى الاتباع والإتيان بالمخالفات، ولكن هذا لم يسقنا أن نرفض كل كتب هؤلاء وطريقه، وإنما أخذنا هذه العبارات التي توصي باتباع الكتاب والسنة، حتى نُعرف بها أتباع الصوفية، ونرد بها كذلك أكثر ما يأتون به من افتراءات وبدع.

ونقبل أحيانا ما يقال: بأن كتب السادة الصوفية قد دُس عليها، وافتري فيها على أصحابها، حتى تكون سبيلا لتكذيب هذه الهنات والإعراض عنها.

وهذا سبيلي دوما في تناول التراث الصوفي، نقبل منه ما يوافق الشرع، ونصد فيه ما يخالفه، ولا يركبنا الشطط في رفض كل شيء، صحيحه بسقيمه، والنكران على رجاله، فلا تمنعك مساوئ رجل من ذكر محاسنه، ومن ثم لا يتعجب القارئ، ونحن نصد عن بعض آثار ابن عربي وابن الفارض وما ورد في بعض كتب الشعراني، وتصديقنا لبعضها والاستشهاد بها، فلا يعني هذا الاستشهاد كما تتصور بعض العقول الضعيفة، أنني أناقض نفسي، وأخلط في عباراتي وكلامي، وإنما هو منهج منصف سلكته وأحيا عليه.

وإذا كان بعض الناس حجتهم، أن نُعرض عن هذا المنهج كله، حتى لا تختلط الأفهام بمعايبه وأخطائه، فقد قلت دوما: إن الصحيح فيه سبيل قوي لرد هذه الملايين التي اتبعت الصوفية إلى الحق والمرشد والصواب.

فإمام كابن الملقن له تراث عظيم في كثير من الفنون، ومدحه كثير من الأعلام، يمكن أن نهتدي بعلمه ونتقفى أثره، لكن هناك بعض المرويات غير المقبولة أو المستساغة.

انظر إليه حينما حكي في كتابه طبقات الأولياء ومناقب الأصفياء عن الشيخ الرفاعي أحد أقطاب الصوفية قال:

وقعد مرة على الشط، وقال: " أشتهى أن أكل سمكاً مشوياً! " فلم يتم كلامه حتى امتلأ الشط سمكاً. ورؤى ذلك اليوم منه في الشط ما لا يرى مثله، فقال: " إن هذه الأسماك تسألني بحق الله أن أكل منها! " فأكل القوم، وبقى في الطواجن رؤوس وأذناب وقطع. فقال له رجل: "ما صفة الرجل المتمكن؟ ". فقال: " أن يعطى التصريف العام في جميع الخلائق، وعلامته أن يقول لبقايا هذه الأسماك: قومي فاسعى! فتقوم فتسعى " ثم أشار الشيخ أليها، فكان كما ذكر.!

ورآه ابن أخته عبد الرحيم أبو الفرج، ورجل قد نزل عليه، فقال له: " مرحباً بوتد المشرق! ". فقال له: " إن لي عشرين يوماً لم آكل ولم أشرب! وأريد أن آمر هذا الأوز الذى في السماء، فتنزل واحدة مشوية! " ففعل، فنزلت كذلك، ثم أخذ حجرين من جانبه فصارا رغيفين، ثم مد يده إلى الهواء فأخذ كوز ماء، فأكل ذلك وشرب ثم طار. فقال الشيخ لتلك العظام: " اذهبي باسم الله! " فذهبت سوية وطارت.!"

وما معنى أن يُعطى التصريف العام في جميع الخلائق! وما تأويلها؟

إنها من صفات الحق سبحانه ومقامها هو مقام الألوهية.

وكذلك الإمام الشعراني، فهو مع جليل قدره وعلو مقامه ومدح الأقران له، وشهادتهم بتفرده وتميزه في العلوم والفنون، وقلمه السيال في كل الفنون، نحب كتبه وننصح بها ولكننا نحذر مما في بعضها من شطحات وقصص وروايات غير مقبولة أو يستراح لها.

يقول الإمام عبد الوهاب الشعراني في الطبقات الكبرى:

"إنَّ سبَبَ حضوري مولد "أحمد البدوي" كلَّ سَنَةٍ أنَّ شيخي العارف بالله تعالى "محمد الشناوي" رضي الله عنه! أحدَ أعيان بيته رحمه الله، قد كان أخذ عليَّ العهد في القبة تجاه وجه سيدي أحمد رضي الله عنه، وسلَّمني بيده، فخرجت اليد الشريفة من الضريح! وقبضت على يدي. وقال: يا سيدي يكون خاطرك عليه، واجعله تحت نظرك! فسمعتُ "سيدي أحمد" من القبر يقول: نعم!

ولما دخلتُ بزوجتي فاطمة أم عبد الرحمن وهي بكرٌ، مكثتُ خمسةَ شهورٍ لم أقرب منها، فجاءني وأخذني وهي معي، وفرش لي فراشاً فوق ركن القبة التي على يسار الداخل، وطبخ لي الحلوى، ودعا الأحياء والأموات إليه! وقال: أزِل بكارتها هنا! فكان الأمر تلك الليلة! . أ.هـ "

أذكر مرة في مطلع شبابي أنني حضّرت مادة علمية لألقي خطبة الجمعة في أحد مساجد قريتنا، وكان موضوع الخطبة عن (حب الرسول ومكانته وتعظيم المسلمين لشخصه الكريم)، واجتمع لدي عدد من الكتب استخرجت منها مادة الخطبة وعناصرها وكان من بينها كتاب (الطبقات الكبرى) للإمام الشعراني رحمه الله، وكان من بعض هؤلاء الأولياء والعارفين من هم على درجة كبيرة في حب النبي صلى الله عليه وسلم ولهم قصص مأثورة بلغت مبلغها الرائع في إجلاله وتوقيره، وكان مما قرأت منها: أن أحدهم كان يتناول طعام الغداء مع ولده.. وكانا يأكلان دجاجة فقال الوالد لولده: يا بني خذ مؤخرة الدجاجة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب مؤخرة الدجاجة.!

فما أن سمع الغلام هذا الكلام حتى قال لوالده: يُحب مؤخرة الدجاجة؟.. إنها قذارة..!

ولم يشعر الوالد حينما سمع هذه اللفظة المنكرة من فم ولده، إلا وقد امتشق سيفه من غمده وهوى به على رأسه فأرداه قتيلاً.! تعظيما للرسول الكريم، وثأرا لمقامه الشريف صلى الله عليه وسلم.!

والحق أن جمهور المستمعين حينما انتهيت من سرد القصة أخذ يمصمص الشفاه، ويهمهم بالتسليم والاتعاظ، وظننت أنا، أنني نَفَذَتُ إلى قلوبهم، وبلغت مقصدي من وعظهم، وما أن انتهت الخطبة ورجعت إلى بيتي، حتى وجدت معلما لي يطلبني على الهاتف فقلت له: مرحباً استأذنا أسعدني سماع صوتك، فرد علي: أنا أتصل بك لأشكرك على هذه الخطبة القيمة، ولكن لي بعض الملاحظات التي أحب أن أتناولها معك، خاصة هذه القصة التي ذكرتها، فقلت له : لقد أتيت بها من كتاب الطبقات الكبرى للإمام الشعراني، وظننت بذكري للكتاب أني ألزمه الحجة، فهو عندما يسمع كلمة الشعراني، لابد له أن يقف عن التشكك ولا يتكلم، ولكنه قال لي: ولنفرض أنها للشعراني، أين عقولنا في فهم النصوص والحكم عليها بالصواب والخطأ؟ هناك كتب كثيرة محشوة بالخيال والشطحات، ولا يعني أنها في كتب الأولين أنها صدق ويقين ومقدسة لا تقبل النقد والأخذ والرد..!

وهنا تفتحت مداركي على معنى جديد، وتذكرت قول الإمام الشافعي: (كل إنسان يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر)، وعرفت أن كل ما نقرأه يجب أن يخضع لميزان التفكير والتمييز والعقل والتأمل، وأن الحكم الحقيقي هي النصوص والثوابت المقررة في ديننا من الكتاب والسنة، وهي التي لا تقبل الزيف والتجوز، ثم واصل الأستاذ تبصيري بخطأي حينما قال: هل يمكن أن نقبل هذه القصة في مقاييس ديننا، والأسلوب النبوي في التعامل مع المسيء، هب أن الغلام نطق بمثل هذا الكلام، فهل يستدعي ذلك أن يبطش به والده، ويقضي على حياته بهذه الوحشية وهذا العنف؟ لم لا يعظه أو ينهاه، أو يبصره بخطئه ووزر ما اقترف لسانه، إن كتب التفسير تغص بالكثير من الإسرائيليات والقصص الغير مقبولة، فهل يعني ذلك أن نسلم لها؟ أم نأخذ منها ما يتناسب مع ديننا ونرفض ما يخالفه؟

فقلت له: صدقت فإن لنا عقولا لا يجب أن تغيب أبدا أمام ما نقرأ.!

وكذلك نجد في كتاب جامع كرامات الأولياء ليوسف بن إسماعيل النبهاني صاحب المصنفات الغزيرة:

"دخلت في هذا النهار إلى الحمام مع شيخنا الشيخ علي العمري، ومعنا خادمه محمد الدبوسي الطرابلسي، وهو أخو إحدى زوجات الشيخ، ولم يكن في الحمام غيرنا قال: فرأيت من الشيخ كرامة من أعجب خوارق العادات وأغربها، وهي أنه أظهر الغضب على خادمه محمد هذا وأراد أن يؤدبه، فأخذ الشيخ إحليل نفسه – أي: ذَكَرَه – بيديه الاثنتين من تحت إزاره، فطال طولا عجيبا بحيث إنه رفعه على كتفه وهو زائد عنه، وصار يجلد به خادمه المذكور ، والخادم يصرخ من شدة الألم ، فعل ذلك مرات ثم تركه، وعاد إحليله إلى ما كان عليه أولا، ففهمت أن الخادم قد عمل عملا يستحق التأديب – قال إحسان: لأن الشيخ معصوم فلا يخطئ!! – فأدبه بهذه الصورة العجيبة.

ولما حكى لي ذلك الحاج إبراهيم، حكاه بحضور الشيخ ! وكان الشيخ واقفا، فقال لي الشيخ: لا تصدقه وانظر – قال إحسان: ورع ووقاحة وقلة دين؟! – ثم أخذ بيدي بالجبر عني ووضعها على موضع إحليله، فلم أحس بشيء مطلقاً ، حتى كأنه ليس برجل بالكلية ، فرحمه الله ورضي عنه ما أكثر عجائبه وكراماته.! أ.هـ "

فهل هذا كلام مقبول أو يليق بالسادة الأولياء والعارفين لله والقريبين من حضرته؟!

الحقيقة والشريعة

لن نعترض على هذا المسمى، وهذه التفرقة المتحدثة في البيئة الصوفية، حينما قسموا حياة المسلم وتدينه إلى طريقين، طريق الحقيقة وطريق الشريعة.

و"الحقيقة في عرف الصوفية، هي المعنى الباطن المستتر وراء الشريعة، وأن الشريعة هي الرسوم والأوضاع التي تُعبِّر عن ظاهر الأحكام وتجري على الجوارح"

وقال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم التصوف، ويقال: "علم التصوف علم الحقيقة أيضا وهو علم الطريقة، أي تزكية النفس عن الأخلاق الرديئة وتصفية القلب عن الأغراض الدنية وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل

علم الشريعة وما يتعلق بإصلاح الظاهر بمنزلة العلم بلوازم الحج وعلم الطريقة بإصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل وعقبات الطريق فكما أن مجرد علم اللوازم ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحج الصوري بدون إعداد اللوازم وسلوك المنازل ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحج الصوري بدون إعداد اللوازم وسلوك المنازل كذلك مجرد العلم بأحكام الشريعة وآداب الطريقة لا يكفيان في الحج المعنوي بدون العمل بموجبيهما"[1]

وقال الشيخ عبدالله اليافعي: " إن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشريعة فمن سلك الطريق وصل إلى الحقيقة فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ونهاية الشيء غير مخالفة له فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة"[2]

والصوفية نحو هذا المعنى ثلاث فئات:

فئة تدعي الفصل التام والتفرقة الغائرة بين بين علم الشريعة وعلم الحقيقة، وبين علماء الشريعة وعلماء الحقيقة، أو بين علم الظاهر وعلم الباطن كما يعبرون أحيانًا، حتى يبرروا انحرافاتهم التي تخالف تعاليم الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليكون هذا الفصل منجاة لهم أمام الجهلاء فيما يركبون من بدع ومحادثات، فإذا أنكر عليهم مُنكر، صاحوا في وجهه واتهموه بأنه من أهل الظاهر وأصحاب الشريعة، وجاهل بعلم الحقيقة وأحوال سالكيه.!

والفئة الثانية، وهي الفئة الراشدة من أهل التصوف، الذين أجمعوا على أن علم الحقيقة، لا يكتمل ولا ينفصل ولا يكون إلا بعلم الشريعة.

وأن أي محاولة لهذا الفصل، إنما هي دعوة للضلال والانحراف، وسبل الزيغ والاعوجاج.

[1] - كشف الظنون (413/1).
[2] - نشر المحاسن الغالية (154/1).

أما الفئة الثالثة: فهي التي تؤمن بالشريعة والحقيقة، وتزعم السير في طريق التصوف بالاتباع، وتعلن أنها متمسكة بالشرع والعلم، ولكن أحوال أصحابها وأفعالهم وبعض أقوالهم، إذا تأملتها تجدهم يؤمنون بكثير ممن يفصلون بين الشريعة والحقيقة، ويروون مأثوراتهم ولا ينكرون عليهم، فتخالف دعواهم مواقفهم.

وقد " أوجس بعض أوائل الصوفية خيفةً من المبالغة في التفرقة بين الشريعة والحقيقة، مما قد يؤدي إلى التراخي في القيام بواجبات الشرع، فألحوا في المطالبة بظاهر الشرع.

ولعلنا هنا نُذكر من يجادلون حول هذا المعنى بصيحات الاتباع التي أطلقها ونادى بها أئمة التصوف الكبار، حتى تكون تذكرة وإنذارًا لمن يوغلون في بحار التصوف بعيدًا عن العلم والشرع.

قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : (مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة).

وقال أيضا: (الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه) وذكر رجل عنده المعرفة فقال: (أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات (الأعمال) من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل) فقال الجنيد رحمه الله تعالى: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال الصالحة التكليفية، وهو عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، واليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها.)

وقال سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى: (أصولنا سبعة أشياء.. التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق)

وقال كذلك: "ما من طريق إلى الله أفضل من العلم (يعني العلم بالشرع)، فإن عدلت عن طريق العلم خطوة تهت في الظلمات أربعين صباحًا."

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى: (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة، فهي زندقة، طِر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم).

وقال أيضا: (ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، ولا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال)

- وقال الشيخ عبدالوهاب الشعراني: (إن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة، كتحرير الذهب والجوهر، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون)

- وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: (إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة، فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في الكشف والإلهام)

- وقيل كذلك: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.

ومن جميل ما نسب للإمام الشافعي :

فقيهًا وصوفيًا فكن ليس واحدًا ** فإني وحق الله إياك أنصح

فذلك قاس لم يذق قلبه تقى ** وهذا جهول، كيف ذو الجهل ينصح[1]

[1] - ديوان الإمام الشافعي إعداد وتعليق محمد سليم

– وقال أبو الحسن الوراق رحمه الله تعالى: (لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم في شرائعه، ومن جعل الطرق إلى الوصول من غير الاقتداء يضل من حيث ظن انه مهتد)

– وقال أبو يزيد البسطامي: (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة)

– وقال كذلك في الصوفي: (هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله بشماله، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة، وبالأخرى إلى النار، ويأتزر بالدنيا ويرتدي بالآخرة، ويلبي من بينهما للمولى: لبيك اللهم لبيك)

– وقال الشيخ إبراهيم بن محمد النصر أباذي رحمه الله تعالى: (أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع، وتعظيم الأخلاق الجميلة والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب ارخص والتأويلات، وما ضل أحد في هذا الطريق، إلا بفساد الابتداء، فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء)

– وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى في قواعده: (وكل شيخ لم يظهر بالسنة، فلا يصح اتباعه لعدم تحقق حاله، وإن صح في نفسه وظهر عليه ألف ألف كرامة من أمره)

– وقال أيضا: (لا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى، ولا هما (التصوف والفقه) إلا بإيمان إذ لا يصح واحد منهما دونه، فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأجسام للأرواح، ولا وجود لها إلا فيها كما لا حياة إلا بها فافهم)[1]

[1] - التصوف الثورة الروحية في الإسلام- أبو العلا عفيفي

ويقول أبو سعيد الخراز المُتوفَّى سنة ٢٧٧: «كل باطن يخالف ظاهرًا فهو باطل.»

ويقول أبو بكر الزقاق الكبير، وكان من أقران الجنيد: «كنت مارًّا في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين للشريعة، فهتف بي هاتف من تحت الشجرة: كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر.»

يقول جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي المُتوفَّى سنة ٥٩٧: «وقد أخبرنا ابن ناصر بإسناد عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: قيل لأبي نصر النصراباذي: إن بعض الناس يُجالس النسوان ويقول: «أنا معصوم في رؤيتهن.» فقال: «ما دامت الأشباح قائمة فإن الأمر والنهي باقيان، والتحليل والتحريم مُخاطَب بهما.»

وقال أبو علي الروذبادي وسُئل عمن يقول: «وصلت إلى درجة لا يؤثر فيَّ اختلاف الأحوال.» فقال: «وقد وصل ولكن إلى سقر.»

وبإسناد عن أبي محمد المرتعش يقول: سمعت أبا الحسين النوري يقول: «من رأيته يدَّعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عن علمٍ شرعي، فلا تقربَنَّه، ومن رأيته يدَّعي حالة باطنة لا يدلُّ عليها ويشهد لها حفظ ظاهر، فاتَّهِمْه في دينه.»[1]

ومما يدلُّ على أن التزام الشريعة والاقتداء الدقيق بسنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم، كان من دأب قدماء الصوفية، تلك الصيحة المدوية التي صاح بها أبو القاسم القشيري في مطلَع رسالته (التي ألَّفها حوالي سنة ٤٤٠هـ) في وجه صوفية عصره، مطالبًا إياهم بالرجوع بالتصوف إلى سيرته الأولى، وذلك لما رأى منهم من التواني والفتور في مسائل الشريعة، اعتمادًا على ما سموه بالحقيقة. يقول: «إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبقَ في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل:

[1] - تلبيس إبليس لابن الجوزي

أما الخيام فإنها كخيامهم** وأرى نساء الحي غير نسائها

حصلت الفترة (أي الفتور والضعف) في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة.

مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقلَّ الشباب الذين كان بسيرتهم وسنَّتهم اقتداء، وزال الورع وطُويَ بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحَلَ من القلوب حُرمة الشريعة، فعَدُّوا قلَّة المبالاة بالدِّين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانُوا بالصوم والصلاة ...»

ووصف ابن تيمية المتقدمين من أئمة التصوف بقوله في الفتاوى: "فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن ادهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والسري السقطي والجنيد بن محمد وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبدالقادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين فهؤلاء لا يسوغون للسالك لو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم"[1]

وجاء الغزالي وقد أخذ على عاتقه مهمة التوفيق بين التصوف وتعاليم الدين، أو بين الحقيقة والشريعة، وأقام من الدين أساسًا للتصوف، فمَزْج عناصر التصوف مزجًا تامًّا بعناصر من القرآن والحديث، ورفع بذلك من قيمة التصوف حتى في نظر أعدائه، وقد جاءت تآليف الغزالي في هذا الميدان نتيجةَ رغبة صادقة من نفس صادقة في تحصيل حياة روحية حقَّة للغزالي نفسه أولًا، ثم لغيره ممن يتوقون إلى طمأنينة النفس بإيصالها إلى الحقيقة ثانيًا. فإن الغزالي حاول

[1] - مجموع فتاوى ابن تيمية

أن يحلَّ مُشكلته الروحية أولًا، ولكنه خلَّف لنا تراث المعلم الرُّوحي الذي يرشد السالكين إلى حل مشكلاتهم الروحية أيضًا.

وجد الغزالي الحقيقة التي كان يَنشدها في الطريق الصوفي، ولكن لم تَصرِفه هذه الحقيقة عن الشريعة ولا حولته عن عقيدة أهل السلف، بل ظلَّ مُستمسِّكًا بمبدأين هامَّين حَفِظا عليه دينه؛ الأول تقديسه للشرع واتباعه الدقيق له، والثاني وجهة نظره في الله من حيث هو ذات قديمة مخالفة للحوادث، وأن النفس الإنسانية قد تستطيع أن تتَّصف بصفات الكمال فتتقرَّب بذلك من الله وتَعرفه أكثر من غيرها، ولكنها لا تستطيع أن تتحقَّق بمعنى الإلهية على أي نحو من الأنحاء، وبذلك أقفل الغزالي الباب في وجه أصحاب وحدة الوجود.

أما أن «الحقيقة» في نظر الغزالي لا تتنافى مع الشريعة فيدلُّ عليه قوله في الإحياء:

"من قال إنَّ الحقيقة تُخالف الشريعة والباطن يخالف الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب، وكل حقيقة غير مقيَّدة بالشريعة فغير محصولة.

فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق.

فالشريعة أن تَعبده، والحقيقة أن تَشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قدر وأخفى وأظهر."[1]

لقد أوغل القوم في تفسير معنى الحقيقة وظهرت لها تفسيرات عدة، ومن ثم دب "الخلاف بين الصوفية والفقهاء ويتهم الفقهاء الصوفية بالابتداع في الدين ويتهم الصوفية الفقهاء بالجمود وضعف الروحانية.

[1] - إحياء علوم الدين

ومن القصص التي لها مغزاها في إظهار الفرق بين فهم الفقهاء للدِّين وفهم الصوفية، ما رُويَ من أن أحمد بن حنبل كان عند الشافعي يومًا فمرَّ شيبان الراعي الصوفي، فقال أحمد: أريد يا أبا عبد الله أن أنبِّه هذا على نقصان علمِه ليَشتغِل بتحصيل بعض العلوم، فقال الشافعي: لا تفعل، فلم يَقتنِع وقال لشيبان: ما تقول فيمن نسيَ صلاةً من خمس صلوات في اليوم والليلة ولا يَدري أي صلاة نسيَها، ما الواجب عليه يا شيبان؟ فقال شيبان: يا أحمد هذا قلب غفل عن ذكر الله تعالى، فالواجب أن يؤدَّب حتى لا يغفل عن مولاه. فغُشي على أحمد، فلما أفاق قال الشافعي رحمه الله: ألم أقل لك لا تُحرِّك هذا؟»

لا شكَّ أن أحمد بن حنبل كان يُفكِّر في جوابٍ فقهي يتصل بعدد الصلوات وأوقاتها، وفي مخرج فقهي أو حيلة فقهية تُخرج ذلك المصلِّي من ورطته، ولكن شيبان لم يفكر في هذا كله وإنما فكر في أساس الصلاة وجوهرها وهو ذكر الله وعدم الغفلة عنه."[1]كما هي عادة من يفكر بدعوى الحقيقة.

بل نجد بعضهم قد عد علم الحقيقة هو الفقه الحقيقي في الدين ويستشهدون بأثر الحسن البصري حينما سئل يومًا: فلانٌ فقيهٌ، فقال: "وهل رأيت فقيهًا قط؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه.» فالفقه الحقيقي في نظر الحسن هو البصر بأمور الدين وإدراك أسرار الأحكام، لا مجرَّد العلم والعمل بالأحكام، ونتيجة ذلك الإدراك هو الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة."[2]

رد على افتراء

شيء مفزع هذا الكم من الجهل والافتراء والتضليل والتعمية الذي رأيته بعيني.

[1] المرجع السابق
[2] - المرجع السابق

منذ أيام أرسلت لي أخت كريمة مقطعا مرئيًا تحت عنوان (ابن تيمية والتصوف) لشيخ أزهري دكتور اسمه (ي- ج) أنا لا أعرفه، ولم أسمع به من قبل.

أرادت الأخت الكريمة معرفة رأيي في كلام الرجل.

تبين لي أنه صوفي فكل المعلقون عنده صوفيه، وهيأته في صورته كانت صوفية، ولكن راعني هذا الجهل الكبير، والافتراء المفرط، والفهم المعوج لحقائق العلم، رغم ارتدائه لعمامة الأزهر.

قلت: أسمع لعلي أهتدي إلى شيء من العلم جديد، ولكن كانت الدهشة من هذا الكم المذهل من الزيف والتعمية والافتراء، والفهم الآسن الذي رتع فيه الرجل ويعلمه لتلاميذه ويضللهم به.

سئل الرجل عن ابن تيمية فأجاب:

ابن تيمية ليس له سند متصل بالتصوف

لكنه كان شديد العبادة وله أوراد وصلوات ولم يتزوج بسبب التفرغ للعبادة.

افتتن الناس به لكثرة عبادته، وتأثروا كذلك بشذوذاته وتبنوها، إذ لا يمكن أن يكون عابدا بهذا الشكل ويقو كلاما خطأ.

ثم قال الرجل: إن علماء الشريعة قاموا بحبسه، حتى يصرفوا فتنه عن الناس ويتفرغ لعبادته مع ربه.

كان لبقا ونشيطا في الكتابة، ويغر الناس البسطاء بمظهره، والناس السذج يصدقون العباد وينخدعوا بهم ، وهو يقول كلاما في حق الله لا يليق، وفي حق النبي صلى الله عليه وسلم لا يليق، وفي فتاوى الفقه مخالف للإجماع في فتاوى كثيرة.

العلماء ناقشوه فمرة يرجع عن رأيه، ثم لا يلبث إلا ويعود إليه مرة أخرى ، فقاموا بحبسه.

ليس له شيخ.

كان يحترم عبد القادر الجيلاني كثيرا جدا، ومن كثرة شكره فيه، قال الناس: إنه كان قادريا، ولم يكن قادريا ولا رفاعيا ولا حاجة خالص، لكنه كان عابدا باجتها نفسي مجرد من الفقه والعلم.

ليس له مدرسة متبعة وذهن مرتب، كان مذبذبا وشخصية لديها نوع من الاضطراب.

هو ليس من الصوفية هو عابد فقط.

إلى هنا أكتفي عند النصف من المقطع فلم أستطع استكمال هذا السخف والهراء والتضليل الظاهر البين.

الرجل المتحدث له هيئة عظيمة، يشعرك وأنت تشاهده أنه من أعاظم علماء الأزهر والراسخين في العلم، لكنه كان أبعد ما يكون عن هيئته.

حتى هذه اللحظة لم أستوعب هذا الكلام الذي لا ينطق به إلا أجهل الجاهلين بحياة وعلم ورسوخ شيخ الإسلام ابن تيمية الذي شهد له القاصي والداني ببحورة العلم وعظم الفهم والوعي.

حاول الرجل الذي لا يعرف من هو ابن تيمية أن يصور لنا هذا الإمام العظيم على أنه واحد من الزنادقة والبدعيين المنحرفين، الذين لم يوصف في تاريخ الإسلام غير بعض الصوفية بمثل هذه الحالة، ولكن الرجل لشدة الافتراء حاول أن يلبس ابن تيمية لباسا لا ينطلي عليه، بل لباسا كان هو لوعورة علمه، يفصلها لكثير من أرباب البدع والضلالة.

ثم يعبر بقوله: عن العلماء الذين خالفوا ابن تيمية، بقوله: علماء الشريعة، أي أنهم هم حصن الشريعة أمام هذا المارق المنحرف، بينما كان العكس هو الصحيح، كان ابن تيمية الحافظ الأعظم للشريعة، أمام أهل البدع والأهواء وضلال العلماء، الذي أعجزهم علمه فراحوا يسلطون عليه السلطان ويوغرون صدره عليه حتى حبسه.

ثم انظر للداهية التي أتى بها الرجل، لقد قال لم يكن فقيها ولا أي شيء.

ولا أعرف ماذا أفعل وأتصرف وأكتب أمام هذه الفرية؟

هل يعقل.. ابن تيمية ليس فقيها؟ وما هذا السفر العظيم الذي بلغ عشرات المجلدات باسم فتاوى ابن تيمية، والذي يعد من مفاخر التراث الإسلامي ومنهل الطلاب والمتعلمين في كل مكان.

شعرت أمام هذا الرجل إما أنه جاهل، يشوه صورة الإمام، أو أنه يمكن بكل تأكيد قد ألبس عليه ويتحدث عن رجل آخر واختلط عليه الأمر.

ثم يقول: لم يكن متصوفا، ولكنه كان عابدا!

وما التصوف في حقيقته يا رجل إلا شدة العبادة؟!

وكيف لا يكون شديد العبادة متصوفًا، وهذا جهل كبير في حد ذاته بمعنى التصوف الذي يتحدث باسمه.

ثم يقول صاحبنا: لم يكن له شيخ.

ثم يقول كان غزير الكتابة، وأنا أتعجب كيف يكون غزير الكتابة من هو جاهل لا فقيه ولا أي شيء على حد تعبير المتحدث؟! ألا إنها فرية كبرى سيسأل عنها أمام الله يوم القيامة.

ولعل هذا الخرف من هذا الدكتور، أنه فعلا وقد تبين لنا أنه لم يقرأ شيئا عن سيرة الإمام ابن تيمية وحياته، وإلا فليخبرني من هم آباءه وأجداده، أئمة العلم والهدى، الذي خلفوا هذا الصبي وملؤا حياته وعقله بالعلم، حتى جلس للتدريس وهو دون العشرين.

وأمام هذا التضليل استرجعت ما أعرف من شهادة أبو البقاء السبكي المتصوف في ابن تيمية: (والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به)

(وكتب الذهبي إلى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه ومن جملة الجواب وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين فالمملوك يتحقق كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والمملوك يقول ذلك دائما، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، و غرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان)

ألم يقرأ حتى هذا الدكتور العجيب كلام السبكي، وكلام الذهبي في شيخه الذي قال عنه (شيخنا و شيخ الإسلام و فريد العصر علما و معرفة ، و شجاعة و ذكاء و تنوير الهيا و كرما و نصحا للأمة ، و أمرا بالمعروف و نهيا عن المنكر ، سمع الحديث و أكثر بنفسه من طلبه ، و كتب و خرج ، و نظر في الرجال و الطبقات ، و حصل ما لم يحصله غيره ، و برع في تفسير القرآن و غاص في دقيق معانيه و استنبط منه أشياء لم يُسبق إليها ،و برع في الحديث و حفظه فقل من يحفظ ما حفظه من الحديث مسندا إلى أصوله و أصحابه ، و فاق الناس في معرفة الفقه و اختلاف المذاهب و فتاوى الصحابة و التابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل يقول بما دليله عنده ، و أتقن العربية أصولا و فروعا و تدليلا و اختلافا و نظر في الفلسفة

وعلومها، و عرف أراء المتكلمين و رد عليهم و نبه على خطئهم و حذر منهم ، و نصر السنة بأوضح حجج و أبهر براهين ، و أوذي في ذات الله من المخالفين ، و أُخيف في نشر السنة المحضة حتى أعلى الله مناره و جمع قلوب أهل التقوى على محبته و الدعاء له و كبت أعداءه و هدى به رجالا من أهل الملل و النحل ، و جبل قلوب الملوك و الأمراء على الانقياد له غالبا و على طاعته ، و أحيا به الله الشام بل و الإسلام ، بعد أن كاد ينثلم لما أقبل حزب التتر و البغي في خيلائهم ، و محاسنه كثيرة و هو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي ، فلو حلفت بين الركن و المقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله و أنه ما رأى مثل نفسه)[1]

و يذكره الشيخ فتح الدين بن سيد الناس أحد الحفاظ المعروفين فيُنقل عنه في فوات الوفيات قوله :

(كاد يستوعب السنن و الأثار حفظا ، إذا تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته ، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه و روايته ، أو حاضر بالنحل و الملل لم تر أوسع من نحلته في ذلك و لا أرفع من درايته ، برز في كل فن على أبناء جنسه ، و لم تر عين من رآه مثله و لا رأت عينه مثل نفسه)

و يُنقل عن الشيخ عماد الدين الواسطي في " العقود الدرية " قوله عن ابن تيمية :

(فوالله ثم و الله ثم و الله لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علما و عملا و حالا و خلقا و اتباعا و كرما و حلما و قياما في حق الله عند انتهاك حرماته و أصدق الناس عقدا و أصحهم علما و حزما ، و أنفذهم و أعلاهم في انتصار الحق و قيامه همة ، و أسخاهم كفا ، و أكملهم اتباعا لنبيه محمد صلى الله عليه و سلم)

[1] - " ذيل طبقات الحنابلة " لابن رجب الحنبلي

و نُقل عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قوله في شذرات الذهب و قد سئل عن رأيه في ابن تيمية بعد اجتماعه به فقال :

(رأيت رجلا سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها و يترك ما يشاء)

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي – رحمه الله – :

ابن تيمية ، الشيخ ، الإمام ، العلامة ، الحافظ ، الناقد ، الفقيه ، المجتهد ، المفسر البارع ، شيخ الإسلام ، علَم الزهاد ، نادرة العصر ، تقي الدين أبو العباس أحمد المفتي شهاب الدين عبد الحليم بن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام ، ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ، وسمع ابن أبي اليسر ، وابن عبد الدائم ، وعدّة وعني بالحديث ، وخرَّج ، وانتقى ، وبرع في الرجال ، وعلل الحديث ، وفقهه ، وفي علوم الإسلام ، وعلم الكلام ، وغير ذلك . وكان من بحور العلم ، ومن الأذكياء المعدودين ، والزهاد ، والأفراد ، ألَّف ثلاثمائة مجلدة ، وامتحن وأوذي مراراً مات في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة."[1]

بل دعك من كلام هؤلاء جميعا، فلعل منهم من كان يجامل شيخه ويتعصب له، ولينظر هذا الدكتور وأتباعه المُضَلَلَين إلى ما قاله شيخ من شيوخ الصوفية المعاصرين في ابن تيمية، وهو الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية الأسبق، حينما صنف (موسوعة فتوى الإمام ابن تيمية في المعاملات وأحكام المال) قال علي جمعة:

"هذه فتاوى شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله تعالى ، وهو من هو في الفقه والاجتهاد وفي العمل والتقوى ، وفي إدراك النص الشرعي الشريف من الكتاب والسنة والاطلاع على مواطن الإجماع والاختلاف وسداد الرأي وإجراء

[1] - طبقات الحفاظ للسيوطي

القياس ، وفي إدراك الواقع بما يشتمل عليه من تغيير وتداخل واختلاط ، وفتاواه هذه تشمل منهجًا شرعيًّا متوازنًا في كيفية إيقاع النصوص على الواقع المتغير في المعاملات المالية ، هذا المنهج الذي نحتاجه أشد الاحتياج في عصرنا هذا ، ومن هذه الفتاوى نستطيع أن نتعلم منهج السلف وكيف يمكن أن نتجاوز عصرهم وأن نحيا عصرنا دون إخلال بأمر الشرع ودون إخلال بمقتضيات المعاصرة ."

وبعد هذا النقل للدكتور علي جمعة، كانت الأعجوبة المضحكة، حينما علمت أن هذا المتحدث من تلاميذه النجباء، ولا عجب حينما نعرف أن شيخه نفسه قد غير جلده وقوله، وصار رأيه في ابن تيمية على النقيض مما سلف، لا لرأي جديد فيه، ولكن لأن المرحلة تتطلب ذم ابن تيمية وإثارة الغبار عليه، والدكتور جمعة ابن المرحلة أو ابن المصلحة وليس ابنا للحق والصواب.. لقد قال يوما عن الإمام: دماغه كانت ضاربة علشان مكنش له شيخ، وقال كذلك: مين قال عليه شيخ الإسلام؟

ألا إن من أخطر الدواهي أن يتصدر الجهلاء لمنصات العلم، فيضلون أكثر مما يهدون ويرشدون.

ابن القيم المغضوب عليه؟

دعني أطرح عليك الآن سؤالا مهما وأدعوك للتفكر فيه:

هل رأيت يومًا صوفيًا يمسك بكتب ابن القيم ويقرأ فيها ويلازمها ويغترف من فيض معينها وهداياتا، ويجعلها في تلك المكانة، التي جعلها مثلا للكتاب الشهير إحياء علوم الدين، مع أن الأخير به ما به من الأحاديث الضعيفة والواهية؟!

وأقصد بكتب ابن القيم، تلك الكتب التي خص الحديث فيها عن التصوف والزهد وأعمال القلوب وعلاجات الروح والزهد والرياضة النفسية، وهي الكتب التي تتوافق مع نفس منهج الصوفية، وتلتقي معهم في طريق واحد، وتضع بصمتها على الغاية التي ينشدونها؟!

هل رأيت صوفيًا يُعنى بمثل هذه الكتب، ويرى فيها قصده ومأربه ونشوته؟!

ربما يكون منهم من فعل ذلك ولكنهم قليل، وهم المعتدلون الذين تتسع صدورهم لقبول هذه الكتب التي كتبها عالم سلفي، وليس أي سلفي! فهو تلميذ ابن تيمية رحمه الله الذي عرف بنكيره الشديد على الصوفية المنحرفة.

لا شك أنه من المعلوم المشهود، أن أشد أعداء الصوفية هم السلفيون المعنيون بالأثر وطلب الحديث، والمقتفون لأثر السنة، هؤلاء هم أشد أعداء الصوفية، وأعتى الناس نكرانا عليهم.

ومن ثم صارت هناك حساسية كبيرة من الصوفية، تجاه كل ما هو سلفي، أو ينتسب إليهم أو يحسب عليهم، فلا تقبل أفكاره حتى ولو كانت تتوافق مع مناهجهم وطرقهم ووسائلهم.

انظر هنا لكتاب (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) وهو الذي شرح فيه ابن القيم كتاب الإمام الهَرَوي الصوفي المعروف، والذي يعد أعظم الشروح التي شرحت كتاب الهروي وأعدلها، ورغم هذا.. لا يقبل عليه الصوفية للحساسية الآنفة الذكر، فمعنى أن يمسك صوفي بكتاب لابن القيم، فإن هذا يعني الإيغال في فكره ومنهجه السلفي المعتدل، الذي قد يؤثر على كثير من مريدي الصوفية، ممن يرجو لهم من شيوخهم سبيل الغي والعوج.. ويدعي بعضهم بأن التلمساني هو أعظم شروح الهروي وذلك لاتفاقها مع هواه فالتلمساني لم يكن معتدل الفهم قويم القصد، وبه شطح عظيم في الفناء والحلول والاتحاد.

وانظر هنا أمام هذه الشهادة لواحد من أتباع الصوفية المتعصبين، وقد قدر لها أن تأتي أمام شهادة واحد من أعاظم دعاة الإسلام في القرن الحديث، وهو الشيخ محمد الغزالي رحمه الله والذي قال في الحق المر: "لقد ألف ابن القيم كتابه الضخم مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، وهي نزعة صوفية انتقلت له من شيخه ابن تيمية الذي كتب في فتاواه جزءا من أعمال القلوب، ببصيرة مشرقة وعرض لأئمة التصوف باحترام وتأييد، وقد جاء كتاب ابن القيم ردا على كتاب منازل السائرين إلى رب العالمين للهروي إمام الصوفية في عصره!

لقد درست كتاب ابن القيم وأنا في معتقل الطور بسيناء، فكنت أشعر وأنا أقوم من درسه بأني أهبط من السحاب إلى الثرى"[1]

هكذا كانت شهادة الغزالي لكتاب ابن القيم والتي أتت أمام شهادة متعصب غير منصف.!

وهذا بدهي لا تعجب فيه، لأن هذه الكتب ستقف بالصوفي على الجادة والتزام الكتاب والسنة، ورفض البدع والمنكرات والخرافات، ولو حدث هذا لناطح الصوفي أهله، وتأثر بفكر الإمام تأثرًا يقلبه على مذهبه، وينمي فيه روح التمرد عليه.

وتأتي الخطورة الأكبر في كتب ابن القيم على مريدي الصوفية، في أسلوبه الذي اعتمد فيه منهج اللين والرفق في رد البدع والمنكرات، فهو رحمه الله لم يكن كشيخه ابن تيمية، الذي كان يرد بعنف، ويهاجم بقسوة تستفز الصوفية وتحرضهم عليه.

انظر مثلا في شرحه لكتاب الهروي حيث قال في المقدمة ما أوحى بفرط الأدب والاحترام: «مثلي ومثل الشيخ الهروي، كمثل الهدهد مع سيدنا سليمان، حيث وقف الهدهد على باب سيده سليمان ذليلاً وهو يستدرك عليه بعض ما نسيه أو أخطأه قائلاً: «أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ

[1] - الحق المر للشيخ محمد الغزالي ج4

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ»، ويبقى الهدهد هو الهدهد وسيدنا سليمان هو النبي والملك العظيم».

ويعلق على هذا الشيخ محمد الغزالي قائلاً: «فانظر إلى أدب العلماء مع بعضهم البعض».

كما علق غيره بقوله: "إن ابن القيم لم يتحدث بلغة التبذل أو الإهانة أو الشتم، أو حتى لغة الردح السائدة الآن في أوساطنا، فيقول مثلاً: جهالات أو سخافات أو سقطات أو ترهات أو غباءات الهروي، أو بالخيانة والعمالة التي تعم مجتمعاتنا الآن.

هكذا كان ابن القيم الذى نتحدث عن فكره، فهو أرق كثيرًا من شيخه ابن تيمية الذى كان شديد المراس في المنافحة عن الرأي الذى يراه، وحادًا فى صراعاته الفكرية مع الآخرين، وصارمًا في الشدة معهم."

لقد اهتم ابن القيم بقضايا الزهد ووسائل التصوف، وعلاقة العبد بربه وطرق القرب إليه، ولم يدخل في صراعات فكرية مع أي مذهب، ولو فعل، فإنه يفعل ذلك بطريقة لينة رقيقة هادئة، ومن ثم لم يقم حوله هذا الغضب والاحتدام، الذي قام على شيخه ابن تيمية، فكان مقبولا عند كثير من الطوائف والمذاهب، وكما قيل عنه: إنه قدم خلطة سحرية أرضت الصوفي والسلفي والعالم والعامي والقريب والبعيد، حينما جمع بين فقه السلف وزهد المتصوفة.!

والناظر فيما خلفه ابن القيم من تراث روحي وصوفي يتعجب من كثرته، ويتعجب أكثر أن لا تنال هذه المؤلفات مكانها بين المتصوفة البدعية، ويرى هذا الإعراض من باب التعصب المقيت، والتحيز غير المنصف، انظر لبعض هذه الأسماء التي تقف بك على هذا العالم الصوفي الذي لا يعترف به كثير من غلاة الصوفية..

إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان

- تحفة النازلين بجوار رب العالمين

- الداء والدواء

- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح

- روضة المحبين ونزهة المشتاقين

- طريق الهجرتين وباب السعادتين

- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

- قُرَّةُ عيونِ المُحِبِّين وروضةُ قلوبِ العارفين

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة

وغيرها وغيرها من المصنفات الصوفية الباهرة، التي كان يعتمد فيها ابن القيم كثيرًا من أقوال الصوفية القدامى، وأكثر الاستشهاد بأقوال الأوائل منهم، لتكون حجة على المتأخرين في طريقهم ممن خالفوا الشريعة.

وهو المنهج الذي أسير اليوم عليه في إيماني بروعة التصوف وجمال طريقه، شريطة أن يخلوا من هؤلاء العبثيين الذين شوهوا مساره، وانحرفوا عن حقيقته وأصوله.. فلا يغضب قارئ متصوف، فأنا لا أذم صوفيته، ولكن ليس من حقه أن يمنعني أن أدافع عن التصوف الحق، وأرد عنه خرف الأدعياء، وزيف المتمسحين بعتباته وهو منهم براء.

رد على اتهام

لست ممن يحبون افتعال المعارك، وحتى إن جرت معركة، فإنني أتحلى بالأدب، والاحترام، ولا أنعت خصمي بالجهالة والسوء، أو أصفه بتوصيفات تقلل من مقامه وقدره، حتى وإن

كان أقل مني علما وقدرا وعطاء.. اللهم إلا إن كان عدوًا ملحدًا أو ضالا مبتدعا، فلا هوادة عندي في دحره، فإن الأدب دائما في حياتي، مسلك ألتزمه وشعار أعليه.

ومن ثم سأتغاضى عما وصفني به الواصف، من ألفاظ تظهر السوء وتحزن النفس، وتؤذى الروح.. وقبل الخوض أحب أن أسأل صاحبنا سؤالا مهما: هل تنكر أن الصوفية فيهم أو ينتسب إليهم من هم من أهل البدع والزيغ والبدع؟ وكيف ينكر صاحبي هذا، وأئمة التصوف العظام أنفسهم قد أعلنوا ذلك وأبانوه، ومنهم صاحب الإحياء، الذي ذكر ألوان الصوفية وأشياعهم التي لا تعبر عن الطريق وهو منهم براء؟

وإذا أجاب صاحبي بنعم، فهذا جيد ونتفق فيه، وهؤلاء الغلاة والمنحرفون من أعنيهم وأوجه لومي لهم، وذكرت هذا في كلامي، ولكنه يعرض عنه، لأنه يحاول جاهدا أن يلهينا عن حقيقة وجود هؤلاء المنحرفون.

وإن رفض بدافع الغيرة على التصوف والصوفية، فعنده كتب الأئمة وعلى رأسهم الإحياء فليرجع إليه إذا شاء.

يقول صاحبنا : متهكما على مقالي السابق الذي ذكرت فيه: لماذا يعرض الصوفية عن كتب ابن القيم؟

"لماذا يرفض المعتزلة كتب الأشعريّ؟! ولماذا يرفض الأشعرية كتب الجاحظ "العقدية"

والحق أنني أتعجب من هذا التساؤل وهو واضح وضوح الشمس، وذلك لاختلاف المنهج والسبيل والتوجه، لكنني في طرحي للمقال ولمعنى ما جاء فيه، أشرت إلى أن كتب ابن القيم تختلف عن غيره من كتب السلفية، فهي كتب تهتم بوسائل التصوف، خاصة أنه قام بشرح كتاب إمام صوفي كبير وهو الإمام الهروي، معنى ذلك أن كتاب الهروي الصوفي معلوم عن

الصوفية، ومن ثم يكون الاهتمام بشروحه موجودا ومرغوبا فيه، فلو أنني وجدت يهوديا ألف كتابًا عن مصر، فلا شك أن كون الكتاب عن مصر سيدفعني لأرى ماذا قال فيه لأن لفظ مصر، قد أوجب علي الاهتمام بكل ما يمت لها بصلة.

ومن ثم رددنا على هذا التساؤل: أن مدارج السالكين شرح لكتاب إمام صوفي ومن ثم ما يمنع المتصوفة أن يهتموا به ويقبلوا عليه؟

مع أنني وفي المقال أكدت وكتبت أن هذا ليس ديدن وحال إلا غلاة الصوفية، وذكرت أن من الصوفية، من يهتم بكتب ابن القيم ويقرأ فيها، ويقتني كتاب المدارج وما فيه من شرح لكلام الهوري، فلا أدري كيف لصاحبنا أن يتغافل ذلك؟! ويهمله؟!

ولكن صاحبي يريد أن يعيش جو المعركة، ويريد أن يتقمص دور الفارس المنافح عن التصوف وطريقه وأوليائه، ولكن للأسف يدافع في غير ساحته، ومع من ليسوا بأعدائه.

دار بنا صاحبنا في مقاله الشرس، الذي يريد أن يظهر فيه بمنهج المنافح عن التصوف في مسألة الاختلاف وسنة الله في خلقه، وأنا أتعجب مالنا وهذا؟! وقد ذكرت أن اهتمام ابن القيم بشرح كتاب لإمام صوفي، قد التقى مع الصوفية في مسار وخندق واحد، ولم يكن وقتها ممن يخالفهم أو يعارضهم بتشديد النكير، وهل يعلم صاحبنا أن كثيرا من متشددي السلفية قد ذموا ابن القيم لتأليفه لهذا الكتاب، لأنهم طبعا وكما هي عادة بعضهم يحبون له أن يكفر ويفسق، ويُخرج من الجنة ويُدخل خصومهم نار جهنم.

ثم انظر لكتاب صفة الصفوة للإمام ابن الجوزي وهو سلفي، كيف عج بالشطحات عن أئمة التصوف الأوائل، ولم ينكر شطحاتهم ومروياتهم التي تخالف العلم والمنطق والعقل، ومع هذا موجود، ويقتنى وينكرون عليه وهو إمامهم، بل هو الذي صنف المرجع الكبير الذي يرجع إليه كل من أراد نقد الصوفية الضالة المنحرفة، وهو كتاب (تلبيس إبليس).

يقول صاحبنا:

" والرد البديهي: يا هذا لقد وجدت عقولنا ضالتها في أئمتنا وكتبها، ووجدت قلوبنا اطمئنانها في علمائنا ومذاهبهم، ووجدت أرواحنا مستراحها في كلماتهم ونظرهم.. إليك عنا فقولك رَكّ، ومنطقك عكّ، ودعوتك إلى غيرنا تردد وشكّ!"

وطبعا واضح من الحديث كيف انحل عقد الأدب والاحترام في الكلام، لأن صاحبي كما ذكرت يحب مناخ المعركة والقتال، ويخيل إليه أنه صنديد التصوف وقارع طبول حربه، ولكننا نتحلى مع كل هذا بالأدب والاحترام، حتى مع من نعتنا بأقوال السوء، وأوصاف لا تليق، ولم يراع حتى فارقة السن، وهو الأدب الذي تعلمناه في محاضن الصوفية الصادقين وشيوخها الطيبين.

لكن من هذا القول السالف لصاحبي أقول له: أي كتب وأي أئمة وأي مذهب تقصد؟

هل هو مذهب الحلول والاتحاد كابن عربي وابن الفارض؟ أم هو مذهب أهل السنة منهم والحافظون للطريق أن يسير على هدي الكتاب والسنة؟ أجبني رحمك الله؟

أما اعتراضك الغريب على كلامي في ردي على رد السائل الذي أعجبك وأنشاك وأبهاك ورسم البسمة على محياك، والذي سأل بقوله: "(هل رأيت سلفياً يهتمُ بكتب ابن عطاء الله، وابن زروق، وابن عجيبة، وابن عربي، والجنيد، والجيلاني....؟!)

فقد أجبت عليه سلفًا: بأن أحدهم لم يؤلف في مناهجهم حتى يُقبلوا عليه، رغم أن كثيرًا منهم يهتمون بكتب السبكي لصنعته في الحديث، وهو العلم الذي يلتقي معهم في اختصاصهم وتوجههم، بل حتى السلفية القدامى الذين اهتموا كذلك بكتاب الإحياء كابن الجوزي الذي

لخصه واختصره في منهاج القاصدين، وجاء من بعده ابن قدامة واختصر المختصر في مختصر منهاج القاصدين.

أليس هذا ردًا على الكلام؟

ثم تقول وكأنك قول حكيم الصوفية الذي يوجههم ويرشدهم: المسألة سهلة جدًا، كما أن السلفيةَّ وجدوا راحتهم وضالتهم في كتب ابن القيم، هكذا الصوفية وجدوا راحة قلوبهم في كتب هؤلاء الذي ذكرتهم فاطمأنوا بها ولها)..

من قال لك هذا يا عزيزي؟

لقد رأيت شيخ الطريقة الجعفرية في قريتنا يقتني كل كتب ابن القيم وينهل منها ويغترف من معينها، لأنه رجل عالم يعرف قدر ابن القيم وكتبه، التي تلتقي مع التصوف في طريق واحد.

ثم يقول صاحبي:

"ولا أعلم ما هذا التخبط: فالمنطق يقول: إذا كان للسلفية حجة في الإعراض عن أغلب كتب بعض من ذكرت -بوصمة الحلول والاتحاد- فما حجتهم في عدم الإقبال على البعض الآخر الذي لم يوصم بهذا؟! أم أنهم أخذوا الحابل بالنابل خوفًا على اهتزاز عقيدتهم!! فرفضوا جميع كتب المتصوفة، وإن كان فما أعظم جنايتهم التي دافعت عنها!"

وواضح من كلامه أنه يريد بالقوة أن يجعلني في صف السلفية، حتى يبرر تطاوله علي ويوهم القراء أنه فارس الصوفية المغوار.

وأقول لك يا من كنت أتمنى في ردوده تهذيبا واحتراما: السلفيون غير الصوفية، السلفيون أكثرهم يجنح للتطاول والتكفير والاتهام بالبدعة والتفسيق، أما الصوفية الحقة فلا تفعل ذلك، وتناصر الحق أينما كان ولا تتشنج ولا تمقت ولا تعادى.. وكل من يفعل ذلك منهم هم غلاتها

والمنتسبون زورا لطرقها، أما الصوفية الحقة المتأدبة فلا، وليس هذا أبدا طريقهم ومنهجهم، الذي يقوم على التسامح والأدب والحوار واحترام المخالف.

ثم يقول:

كما أننا رجعنا من جديد إلى خطيئة التعميم: فكلام الأستاذ يوحي بأنه استقصى استقصاء جديا بهمة باحث عبقري، كل كتب هؤلاء فكانت عنده قسمين: قسم حلولي وقسم مقبول، فإذا كان فليتفضل علينا الأستاذ بكتب القسم المقبول لهؤلاء الأئمة حفاظا على عقيدتنا أن نتناول كتابًا مسموما؟!

وأنا أقول لك بكل سهولة، وهي السهولة التي يعلمها كل المسلمين، عليك بكتاب الإحياء فهو كتاب قيم مستقيم، مع ما فيه من تخريج الأحاديث، عليك بكل كتب حجة الإسلام الغزالي ورسالة القشيري والإمام الشعراني، رغم ما في كتبه من بعض كذب لفق عليه، باعترافه هو، وإياك ثم إياك أن تقبل على كتب ابن عربي وابن الفارض ومن ينحى منحاهما، وهي وصية الحافظ السيوطي رحمه الله.

أما كتب السلفية، وردا على توهمك البادي منه من أنني سلفي، فأقول لك: لا تقرب كتب محمد سعيد رسلان ولا المدخلي، وعليك بكتب الألباني ومحمد إسماعيل المقدم والشيخ محمود المصري وغيرهم كثير من المعتدلين في الفهم والوعي.

ثم يقول صاحبنا:

بالإضافة إلى كل هذا؛ فالأستاذ الفاضل لم يعرف منهج البحث -وهذا واضح وظاهر- في تأليف كتب المتصوفة وليست كغيرها من كتب الرقائق والزهد.. لم يعرف أن القوم من الصوفية لهم فلسفة في مؤلفاتهم ومجاهداتهم، وعلاقة فريدة بين الشيخ والمريد وأحوال

ومقامات ومواجيد، لهم مصطلحاتهم الخاصة، كما لكل علم رجاله ومصطلحاتهم.. لهذا العلم إطار تأصيلي وليس متروك هكذا سبهللا، والأستاذ ظن أن كل مؤلف في الخوف والرجاء والصبر والشكر هو مؤلف صوفي ويمكن الرجوع إليه؟!

وأنا أتعجب من هذا الجهل الذي استبد به شطح عظيم، فما ذكرته من هذه الموضوعات يسميها الصوفية وسائل التصوف، وعليها يدور أغلب التراث الصوفي، انظر مثلا إلى الإحياء فهل يغلب موضوعه بمثل ما ذكرت؟ وهو كتاب سهل يقبل عليه كل مسلم دون أن يجد فيه عنتا أو ضيقا؟ بل راجع ما قاله ابن عجيبة الحسني في شرح الحكم العطائية عن هذه الوسائل التي يدور عليها علم التصوف.

ثم هل تجد هذا حتى في كتب العلماء الصوفيين المعاصرين كالإمام عبد الحليم محمود، والشيخ الشعراوي، أم أنك تخلط الأمور، لتحاول بأي طريقة أن تظهر وتنصر بعض العوج؟

اذهب لشرح ابن القيم على الهروي، لترى إن كان كل ما ذكرته أنت موجود أم لا، فمن قرأه يجزم أن مؤلفه صوفي من أماجد الصوفية.. ما عدى طبعًا ما يؤثر عن بعضهم من الشطحات.. لقد حاولت أن تراوغ وتماري حتى تصور للقارئ جهل من تتحدث عنه، وفي الحقيقة لم تظهر فيما ذكرت إلا جهلك أنت.

ثم يقول في النهاية ما يناقض كل كلامه السابق، ويهدمه هدما، ويظهر فيه ما أقررته أنا، بل يحاول فيه أن يخفي الحقيقة المرة، التي نبهت عليها وأظهرتها دوما، وهي أن في الصوفية غلاة منحرفون مبتدعون ضالون، وهناك كذلك صوفية متسننون متبعون

يقول:

ومن هنا تعلم؛ أن الصوفية لا يرفضون كتب ابن القيم ولا غيره لضلالة أو جهالة، بل إنهم يقدرون العلم وأهله حق قدرهم، كل ما في الأمر، وكل الحكاية أنها مذاهب ومشارب وأذواق و «قد علم كل أناس مشربهم..»

وأنا أقول لك: كيف تقول هذا الكلام وقد أنكرته سلفا في سطورك الأولى من المقال، كيف تنفي وتبرر لهم أن يعرضوا عن سلفي يختلف مهم في المنهج ، ثم تقول الآن أنهم لم يعرضوا عن كتب ابن القيم لأنها مشارب، وقد كان من صوفية الحق من يستشهد به ويقرر كتبه على مريديه؟ أتعجب حقيقة.. من خلطك، حينما تريد أن تخرج من الحرج باعتذار لطيف، ولكنه غير مقبول.

وهل قولك هذا يختلف مع ما طرحته في مقالي السابق من وجهة نظر؟

لقد أقررت الآن فعلا أنهم يعرضون، فماذا قلت أنا غير هذا؟ أم أنك قد راعك أنني كشفت هذه الحقيقة المرة التي تفضح حقيقة غلاة الصوفية في تعاملهم مع تراث إمام عظيم كابن القيم.

ثم يختم بقوله:

رحم الله الإمام العلامة ابن القيم، وجزاه خيرا على ما قدم للدين والعلم والثقافة.. وقدس الله روحه ونفعنا بما ترك من إرث.. وفهمنا وعلمنا الأدب مع العلماء والأولياء أيا كانوا.

وأنا أقول: كيف ينفعك بهذا الإرث وأنت لا تعنى بكتبه لاختلاف المشارب والتوجهات؟

أجبني.. فأنا أتعجب لتناقضك.

وأنا أندهش.. ألم تتعلم كذلك أدب الحوار وأدب الحديث وأدب احترام الكبير، الذي لم يوجه إليك إهانة ولم ينعتك بوصف لا تقبله؟ ما أسخم تناقضك.

أي أدب هذا؟؟

بل هل تراني يوما تطاولت على عالم من علماء الحق بقلة الأدب وعدم الاحترام؟

أم أن كل حديثي في إطار التساؤل العلمي وطلب الحقيقة.

غريب أمرك!

يا هذا إن التصوف مليء بالشرور والآثام والبدع والخرافات، ويصيب التصوف الحقيقي السني في مقتل، ومن ثم وجب على كل صوفي أن يبرئ التصوف من هؤلاء الادعياء، وهذا منهجي وطريقي، فلست سلفيًا تريد أن تقيم معه معركة، ولكني صوفي أكثر منك، وأشد غيرة على الطريق وأوليائه أكثر منك، لكن الفرق بيني وبينك، أنني لست متعصبًا أتعامى عن الحق، بل الحق غايتي ومطلبي، حتى ولو كان ضد أبي، وليس معنى أنني وصفت الإحياء بما فيه من ضعيف الأحاديث وموضوعها أنني أهين حجة الإسلام، وأقلل من مقامه، وأعجب إليك لماذا تقبل على ردودي التي رأيت فيها شبهة، ولم تنقل ردودي التي مدحت فيها الغزالي وقلت فيها: إنه إمام عظيم.. ولكن كيف تنقلها وهي تفسد عليك نشوتك التي ساقك إليها هواك ورغبتك في افتعال معركة ليس هذا مكانها، وليست مع الشخص اللائق بها.

الصوفية القمعية

رددنا كثيرا أن التصوف فيه صوفية سنية، وصوفية بدعية، لكن المدهش اليوم أننا نتناول نوعًا جديدًا ثالثًا لم نعرفه ولم يعرفه القراء من قبل، وهو الصوفية القمعية.

نعم صوفية إرهابية لا تتعجب أبدا، فهذا حال كل من ينتحل الدين بهواه ومزاجه، متحللا من هدي الكتاب والسنة، فيمكن له أن يكون بلطجيًا أو إرهابيًا أو تاجرًا للمخدرات، ومع ذلك يدعي أنه صاحب دين، وهكذا كانت صورة بعض الهمج ممن ينتسبون زورًا لطريق

التصوف، وحينما يعيهم المخالف، لا يجدون غير القوة والبطش والتربص به، فيضربونه أو يغتالونه.

جريمة سافرة، وتطاول فج قام به جمع من الحقراء الجهلاء، واعتدوا على علم من أعلام المسلمين الكبار، وجرهم تعصبهم المقيت فصاروا كالحيوانات، التي لا عقل لها ولا تدري ماذا تفعل أمام الإمام السيوطي، حينما تولى مشيخة مدرسة الخانقاه البيبرسية التي كانت تمتلئ برجال الصوفية، فكان له دوره في الإنكار على ما يأتونه من البدع والخرافات، التي لا يعرفها الدين، حتى أنه وقف يومًا وقال لهم: (لستم بصوفية وإنما الصوفي من يتخلق بأخلاق الأولياء، كما يشهد بذلك كتاب الحلية لأبى نعيم، ورسالة القشيري، وغيرها من الكتب، ومن يأكل المعلوم من غير تخلق بأخلاقهم أكل حراما) فقاموا عليه وضربوه وأهانوه، حتى كادوا أن يقتلوه، وسعوا بالوشاية عنه إلى السلطان ولكنه قال: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أنى منصور عليهم) وقرر بعد هذه الحادثة أن يترك الخانقاه البيبرسية، ويعتزل الناس ومجتمعاتهم، ويتفرغ للتأليف والعبادة، وكانوا ممن تسبب بفعلهم القبيح في عزلته عن الناس، وكراهيته للمجتمع وحرمان المسلمين من وجوده بينهم.

يقول الشعراني في الطبقات: (ثم إن جميع من قام على الشيخ حصل له مقت بين العباد، ومات على أسوأ حال، وقد رأيت أنا بعيني من صار ينصب على من يبيع الدجاج والمأكل، ويدخل بها بيته فلا يعود)

ونقل عن الشيخ بدر الدين بن الطباخ: أنه لما قام الصوفية البيبرسية على الشيخ جلال الدين، صنف فيهم كتابًا، فسألوني أن أعارضه بكتاب، فشرعت تلك الليلة فيه، فإذا بورقة وقعت بحجري مكتوب فيها : (عبدى يا مؤمن لا تؤذ أحدًا ممن حمل علم نبي، فرجعت عن التأليف، وعلمت أن الشيخ جلال الدين على حق)

لقد كان الإمام السيوطي واحد من هؤلاء العلماء الفاقهين الواعين بمحنة التصوف وما جره عليه هؤلاء الدخلاء، فوقف نفسه على حربهم مما دفهم أن يهينوه ويضربوه ويؤذوه، وصدر منهم في حقه ما لا يليق بعالم جليل وإمام متبع، فاتجه يقاومهم بعلمه وقلمه فجلى الحقائق ودافع عن التصوف، وأوضح المفاهيم التي تعلن البراءة الكاملة من أهل الخرافة والتهريج .

يقول الأستاذ عمر فروخ : (أراد السيوطي فيما يبدو أن يسير في إدارة الخانقاه بالحق والعدل، وأكثر الناس يطلبون المنافع من أي الوجوه جاءت ثم لا يبالون بالحق والعدل، فشغب عليه الطلاب بتحريض من نفر من أعدائه، وذلك في الثاني عشر من رجب سنة ست وتسعمائة، فهجر التدريس كله واعتزل الناس في بيته بروضة المقياس، منقطعا للعبادة والتأليف حتى أتاه اليقين)

وليس معنى أنه واجه الصوفية أنه كان عدوًا للتصوف وأهله، لا وإنما كان عدوا للباطل منصفًا للحق حينما قلب لهم ظهر المجن، وتأكد من كونهم منحرفين عن الدين الصحيح، وكانت الخصومة شرسة، وكان الباطل أقوى منه فقاضوه وحاكموه، واتهموه ظلما بأنه طامع في إيرادات الخانقاه حتى استقال منها.

كان السيوطي متصوفًا كبيرا وقطبًا عظيمًا من الأقطاب الذين لهم كرامات ملموسة، وكان في سلوكه العملي قدوة كاملة في السلوك الصوفي الحميد، زاهدًا ورعا كثير العبادة والتهجد عفيفا عالي الهمة متقشفًا لا يعلق همته بغير الله سبحانه، وكما أنكر السيوطي على منسوبي التصوف الجهلاء الأدعياء، الذين لا يدركون من حقائقه شيئا ولا يتمسكون بآدابه، فإنه دافع عن الصوفية المحققين، وقال عنهم: إنهم خيار الأمة، والأنوار التي تضيء في ظلمة، وبهم تفرج كل غمة وتزاح كل ملمة، بحور العلم، أوتاد الأرض، ملوك الخلق، أقمار الزمان، لو أقسم أحدهم على الله لأبر قسمه، ولو سأله أن يزيل جبلا من مكانه لهدمه.

بل إنه كان ناصرًا ومدافعًا عن ابن عربي وابن الفارض، ويراهما من أهل التحقيق الصوفية المتزنة فمن كتبه التي ينصفهم فيها كتابه (قمع المعارض في نصرة ابن الفارض) و(تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي)

إن هناك قطاعات من الصوفية.. لا تحتكم إلى العلم والعقل، وتجعل من التصوف دينها الذي تحارب من أجله وتتعصب له وتقاتل مخالفيه، وتمتد بالأذى لكل ناصح ينكر عليهم ما أتوه من خرافات وبدع ومنكرات، ليست من الدين في شيء، ولم يعرفها سادات الصوفية الحقة الذين سلكوا الطريق، وهم يؤمنون أنه طريق لا يصدق ولا يستقيم، إلا حينما يقوم على الكتاب والسنة، لا كما يفعل عشاق البدعة، وأنصار الخرافة.

الشيعة والصوفية

في حديثنا عن التصوف، ووجوب التفريق بين البدعي منه والسني، كان هناك دائرة أبعد وأعمق من هذا التقسيم بكثير، وهي التي جعلت منهج التصوف الجاهل المنسلخ من حقيقته ومساره، من أخطر الأبواب على الأمة، حينما جعل الشيعة من التصوف مطيتهم للتسلل للبيئة الإسلامية السنية، وتمرير العديد من خرافاتهم وضلالاتهم عن طريق التصوف البدعي، الذي تتجلى خطورته بقوة في هذا الاندماج.. فخطورته اليوم لا فيما يقدم من بدع فقط، وإنما في جهله الذي جعله غنيمة وألعوبة لأعداء الهوية والمعتقد السني.

أشارت بعض التقارير من أن عددًا كبيرًا من أتباع الطرق الصوفية تحولوا إلى المذهب الشيعي، ووصل عددهم حسب ما قيل: إلى ما يقرب من مليون شيعي داخل الطرق الصوفية.

كما "كانت هناك دعوة من بعض الجماعات الشيعية في الولايات المتحدة الأمريكية، لعدد من مشايخ الطرق الصوفية بصفتهم الشخصية، وليس عبر المجلس الأعلى للتصوف، للمشاركة في أحد المؤتمرات عن التصوف.

ومثل هذه الدعوات دافعًا إلى أن يعدها بعض قيادات الطرق الصوفية أنفسهم، محاولات جادة لاختراق الصوفية شيعيا، وأن الهدف من دعوة بعض مشايخ الطرق لمثل هذا المؤتمر، هو محاولة تجنيدهم لدخول التشيع إلى مصر، لأن المنظمين للمؤتمر شيعة.

وهو نفس ما حذر منه العلامة الدكتور (يوسف القرضاوي) الذي نبه في تصريحات سابقة إلى أن الشيعة يحاولون نشر مذهبهم في مصر لأنها تحب آل البيت، وبها مقام الحسين والسيدة زينب، مؤكدًا أنهم أخذوا من التصوف قنطرة للتشيع، وأنهم اخترقوا مصر في السنوات الأخيرة من هذا الجانب، متفقا في ذلك مع ما كشف عنه تقرير لمجمع البحوث الإسلامية عن استغلال بعض التيارات والجهات الشيعية للطرق الصوفية في مصر في محاولة نشر أفكار ومبادئ المذهب الشيعي بين أتباع ومريدي هذه الطرق مستغلة في ذلك وجود تشابه بين التصوف والتشيع."

يحكي أحد الباحثين[1] قوله:

"ذهبت أنا وزوجتي لصلاة الفجر في الحسين وبعد أن أدينا الفريضة فوجئنا بسيدة تصرخ وتصيح: لعن الله أبو بكر .. لعن الله عمر .. لعن الله عثمان .. لعن الله كل نسل أبو بكر!

راقبنا المشهد وسط دهشة من زوجتي، وإن لم تصبني انا الدهشة، لأني حضرت مثل هذا الموقف من قبل مع أبي، وحين حاول التدخل كادت بعض الجموع أن تفتك به، لولا أن قمت بإسكاته وجررته من يده حتى نبتعد عنهم!!

ثم شاءت الأقدار أن أكون في طنطا، وحين سألت مضيفي أن يصحبني الى مسجد السيد البدوي قال لي:

[1] - خالد بكري

لو ذهبت الى هناك سوف يضيق صدرك من مشاهد البلطجي، و شاتمي الصحابة والمتحرشين واللصوص!.

ثم قال صديقنا: هذه المواقف وغيرها تجعلني أتساءل: أين دور الأخوة المتصوفة القائمين على تلك الأماكن ؟!

من المفترض أن يكون تقويم سلوك المترددين على أضرحتهم و قبور أوليائهم من أولى مسئولياتهم، خصوصا أن الأمر متعلق بموضوع خطير مثل سب الصحابة وإساءة سمعة تلك الأماكن المباركة في اعتقادهم.. لماذا سمحوا لتلك الأمور ان تستفحل حتى أصبحت الغلبة لهؤلاء البلطجية شاتمي الصحابة فيخشى حتى من مجرد معارضتهم حتى لا يفتكوا به!

في الموقف الأول لم أر أحدًا يحاول إسكات السيدة شاتمة الصحابة، أو يخطئها في فعلها.. بل رد الفعل كان الصمت التام، وتركها تكمل وصلة الردح و السب للصحابة الكرام على راحتها تماما! .

فهل سب الصحابة أصبح دليل على حب آل البيت عند الاخوة الصوفية، لدرجة أن يسكتوا عليه ؟!

عندما نقول: إن التصوف هو مدخل للتشيع يغضبون ويتهموننا بسوء الظن، ولكن على أرض الواقع نرى إثباتا كاملا لتلك المقولة، حتى ولو وثقنا في حسن نواياهم!

الاخوة الصوفية الذين تتمعر وجوههم على الوهابيين التكفيريين، صارفين كل مجهودهم في التحذير منهم و من منهجهم، نجدهم لا يحركون ساكنا عندما يروون مثل تلك التصرفات المسيئة للصحابة، بل ويدافعون عن الشيعة ويخلقون لهم الأعذار، ويقولون: نترك سبهم للصحابة-وكأنه أمر عادي يمكن التغاضي عنه- ونركز في إسهاماتهم العلمية الشرعية العظيمة! .

و بدلا من أن يقوم أشاوس الصوفية بدورهم ومسؤوليتهم الإسلامية بصورة عملية.

ثم تخيل لو حدث هذا عند أي مسجد عادي لا يسيطر عليه الأخوة المتصوفة حماة الدين ؟!

سوف تجد الناس العاديين يفتكون بساب الصحابة دون أي مرجعية مذهبية .. مما يضع علامات استفهام وتعجب كبيرة، على صمت الأخوة المتصوفة على هذه الأمور في مساجدهم!"

ونحن أمام هذه الغفلة الكبيرة من الطرق الصوفية للاختراق الشيعي، يجب أن نذكر الصوفية بموقف الإمام عبد القادر الجيلاني منهم في كتابه (الغنية) ومواقفه المشهودة في عدائهم والتحذير منهم.

ذكر الباحثون: " أن الجيلاني لم يكن رجلا صالحاً وعارفاً وحسب، بل كان من أهل العلم الدُعاة لمنهج الحقِّ، ممن ربَّوا أتباعهم ومريديهم على العقائد الصحيحة وذم البدع العقائدية وفرق السوء، والتحذير من الوقوع فيها، وكان من جملة ما حذّر منه: التشيّع بكل تفرعاته وفرقه؛ وهو ما ذكره في كتابه (الغُنية لطالبي طريقِ الحقِّ عزَّ وجلَّ) (لكن هذا الأمر نُسي وأصبح مجهولاً؛ لأن مُحبي الشيخ عبد القادر – لا سيما الصوفية – عمّتهم الغَفْلة بهذا الشأن، وأصبح حبُهم للشيخ حبّاً عاماً منْ غير اقتداء بعلومه ومعارفه التي ربّى عليها تلامذته، والمعلوم أن للشيخ مكانة كبيرة عند جميع الصوفية؛ لكن يبقى السؤال: هل انتفع الصوفية من علومه وكتبه؟

لو كان وعي الشيخ عبد القادر وغيره بخطر التشيع، موجودًا عند الصوفية اليوم، لما سَمِعنا أنّ فلانا من الصوفية تأثّر بالتشيع، أو أن بعض أهل التصوف يدافع عن الرافضة، بل ويخفى على كثير منهم أنّ الرافضة أصبحت تَستَغلهم لمصالحها، ولا عذر لأي صوفي في حسن الظن بمن يطعن في الصحابة وأمهات المؤمنين.

وقد وصل الحال ببعضهم أن تعاون مع الشيعة ضد أهل السُنة، كما توجد هناك علاقة على مستوى الجماعات والطرق، مثل ما كان من الطريقة العزمية في مصر، وانحرافها الواضح الجلي عن طريق السُنة، واقترابها من التشيّع، ومنافحتها عنه دينيًا وسياسيا؛ حتى بلغ بهم الحد أن أَفتوا بكفر بني أمية، وقالوا: إنّ أبا سفيان وولده معاوية ليسا صحابيين، وأن الصحابة من بني أمية لا يستحقون شرفَ الصُحبة، هذا فضلاً عن ظاهرة التشيّع السياسي المنتشر بين الصوفية، وقد شرعوا في مصر بتأسيس حزب سياسي بعد الثورة المصرية (25 يناير) بدعمٍ إيرانيٍ، وطالبوا بتدريس فقه آل البيت في الأزهر، وكأن أهل السُنة لا يعترفون بأهل البيت!"[1]

وقد أعجبني من فرق "بين التصوف في منابعه الأولى، والتصوف الذي انحرف فاتصل بالتشيع وغيره فليس التصوف كله غارقا في هذا المكر الشيعي، فقد مر تاريخ التصوف بمرحلتين في النشأة: الأولى: تلك المرحلة التي استغرقت القرنين الأولين وغلب فيها الزهد والخوف الشديد من الله تعالى، أما المرحلة الثانية: فتبدأ مع القرنين الثالث والرابع الهجريين، حين تكلم المتصوفة عن السلوك والمقامات والأحوال والفناء والحلول والاتحاد، وما عُرفَ بـ "علم الباطن- علم الحقيقة"، أو ما يسمى بمرحلة "الشطح"، ولقد حاول الغزالي والقشيري استرداد التصوف من تلك الحمأة بترسيخ وتثبيت دعائم التصوف السني في القرن الخامس الهجري، ولكن قوَّض ما فعلاه ظهور تيار جديد "تيار التصوف الفلسفي" والذي أدخل فيه صوفية القرنين الخامس والسادس الميلاديين مصطلحات فلسفية استمدوها من مصادر عديدة متأثرة ومحملة بالمذاهب والفلسفات الأجنبية." [2]

أوجه التشابه:-

[1] - من مقال التصوف والتشيع للباحث عبد العزيز المحمود عن مركز الدراسات والبحوث اليمنية
[2] - التصوف وعلاقته بالتشيع.. الافتراق والالتقاء - السيد إبراهيم أحمد

أشارت مصادر صحفية إلى تقرير لمجمع البحوث الإسلامية كشف عن محاولة لنشر أفكار ومبادئ المذهب الشيعي بين أتباع ومريدي الطرق الصوفية في مصر من قبل بعض التيارات والجهات الشيعية، التي تستغل التشابه بين التصوف والتشيع، وأن الأموال باتت تتدفق على أتباع الطرق الصوفية في مصر بعد تصريحات أطلقها بعض قيادات التصوف أشاروا فيها إلى أنه لا فرق بين الشيعة والمتصوفين، وحذر المجمع من تزايد النشاط الشيعي في مصر، خاصة مع قدوم لاجئين عراقيين ينتمون إلى المذهب الشيعي.

كما نجد من الباحثين من رصد أوجه التشابه بين التصوف والتشيع في المبادئ والمعتقدات، وقد" قام «الرافضة المتصوفة» قديماً بإشاعة معتقدات توافق في المعنى والحقيقة المذهب الشيعي وإن اختلفت الألفاظ، وعملت على نشرها في الوسط الصوفي الذي تقبلها ولم يلفظها، حتى كاد أن يختفي الصوت المعتدل لأهل التصوف، حيث تم - بتخطيط وتعمد وسبق إصرار - طرح عقيدة «الولاية» في الوسط الصوفي والمشابهة لعقيدة «الإمامة» عند الشيعة، وتم إشاعة عقيدة «الحفظ» للولي بين الصوفية، والتي تشبه عقيدة «العصمة» للإمام عند الشيعة، كما قام الشيعة المتصوفة بتقسيم الدين إلى «شريعة» و«حقيقة»، وهو يشبه تقسيم الدين إلى «تنزيل» و«تأويل» عند الشيعة الإمامية، وقالت الشيعة المتصوفة: إن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ببيان الشريعة، والولي جاء ببيان الحقيقة، كما قالت الشيعة الإمامية: إن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالتنزيل، وجاء علي رضي الله عنه بالتأويل.

"كما قامت «الشيعة المتصوفة» أو «رافضة الصوفية» بإشاعة مبادئ ومظاهر الشرك والوثنية في أوساط الصوفية، فمثلاً يوجد في مصر أكثر من ستة آلاف ضريح، أكثرها تابع للمجلس الصوفي الأعلى، وصرح وزير الأوقاف المصري بأن حصيلة النذور التي جمعت من الأضرحة

في الفترة من (1/ 7/ 2005) إلى (30/ 6/ 2006)، بلغت 52 مليوناً و67 ألفاً و579 جنيهاً (مع أن هناك الملايين من الأحياء تحت خط الفقر).

كما قرر أهل العلم بأن «الشيعة الباطنية» هم أول من أحدث عبادة القبور والمشاهد، في أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

كما اتفق الطرفان الشيعة والمتصوفة على الزعم بأن للدين باطنًا وظاهرًا، في محاولة للاستعلاء بالعلم على العلماء من أهل الظاهر، باعتبارهم هم أهل الباطن والباطن هو المراد على الحقيقة ولا يعلمه إلا الأئمة والأولياء بينما علم الظاهر هو المتبادر من النصوص ويفهمه العامة وغيرهم! وحجتهم في هذا، أن منهج النقل معارض للمنهج الذوقي الذي يأتي منه العلم مباشرة إلى القلب دون حاجة إلى رواية، وفي ذلك ما يقوله الصوفية للفقهاء: (أخذتم علومكم من ميت عن ميت، وأخذنا علومنا من الحي الذي لا يموت)، وهو ما يعبر عنه ابن الفارض بقوله في التائية الكبرى:

فثمَّ وراءَ النقلِ علمٌ يدقُّ عنْ مَدارِكِ غاياتِ العُقُولِ السّليمَة

أما المشترك الأكبر بينهما فيأتي في تقديسهم للأئمة والأولياء؛ فرفع الشيعة مرتبة أئمتهم فوق مرتبة الأنبياء عليهم السلام أو مثلها، فادعوا لأئمتهم العصمة من الزلل، فلا تجوز عليهم الكبائر ولا الصغائر، لا عمدًا ولا سهوًا، من طفولتهم إلى موتهم، كما يعتقدون فيهم الإحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين.

وانتهج صنيعهم الصوفية فأنزلوا صفات من صفات الخالق عز وجل على أوليائهم وأقطابهم وأبدالهم من التصرف في الكون، وتدبير شؤونه ونحو هذا.

يلي تقديس الأولياء والأئمة، تقديس الموتى والقبور، والاستغاثة بهم؛ فتقديس القبور وزيارة المشاهد ركن من أركان المعتقد الشيعي، وهم أول من بنى المشاهد على القبور، وجعلوه شعارهم."[1]

ولقد حاول الدكتور علي جمعة رد هذا التلاحم بين الصوفية والتشيع فقال: " في البداية لا يمكن أن نعد التصوف الإسلامي مذهبا عقائديا، كالمعتزلة، والخوارج، والشيعة، ولا يمكن أن نعدهم كذلك مذهبا فقهيا كالحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة. ولكن التصوف الإسلامي منهج التربية الروحي والسلوكي الذي يرقى به المسلم إلى مرتبة الإحسان، التي عرفها النبي صلى الله عليه وسلم : "أن تعبد الله كأنك تراه ،فإن لم تكن تراه فإنه يراك" فالتصوف برنامج تربوي، يهتم بتطهير النفس من كل أمراضها التي تحجب الإنسان عن الله عز وجل، وتقويم انحرافاته النفسية والسلوكية فيما يتعلق بعلاقة الإنسان مع الله ومع الآخر ومع الذات."

ولكن الرجل قد أغفل كيف قصد الشيعة هذا الباب الروحي التهذيبي تمهيدا لتثبيت عقائدهم وأضاليلهم.؟

جريمة صوفية

التعصب شيء مقيت يقتل العلم والنور والبصيرة والحقيقة.

التعصب عدو الفكر والعقل والفهم والوعي، التعصب رمز للجهالة والظلام والرجعية والتخلف.

ولا تجد قومًا تقوم عقولهم على التعصب، إلا فشا فيهم الجهل وعم الضلال.

[1] - التصوف وعلاقته بالتشيع.. الافتراق والالتقاء- السيد إبراهيم أحمد

كانت هناك فترات في تاريخ أمتنا قد نال منها التعصب نيلة، خاصة هذا التعصب العلمي والمذهبي، وكان الانتصار للرأي والمذهب، يسول للمتعصبين أن يبيحوا دماء خصومهم ويكفرونهم ويلعنونهم، في صورة يتعجب المرء وهو يقرأ عن زمانها وطبيعة أصحابها.

وفي التاريخ الإسلامي لا تجد فرقة تعصب لها أصحابها، أو مذهبًا تعصب له معتنقوه مثل التصوف، الذي حول أصحابه أحيانًا إلى قتلة وسفاحين، خاصة فيمن كان منهم قريبًا إلى العامة، وحتى طلاب العلم منهم، لم يكونوا بأقل شأنا من العامة في اعتماد الإرهاب وقمع للخصوم.

نعم تحدثنا كثيرًا عن الصوفية في ميدان الإرهاب الفكري، وعلى قدر عظمة التراث الروحي للتصوف وشيوخه وأتباعه، كانت فداحة الأدعياء منهم أعظم أثرًا في ميدان الإرهاب الفكري ووأد الخصوم وكبتهم، والعدوان عليهم بالضرب والإساءة والتطاول والتكفير والتفسيق.

حكيت في ذلك عن جريمتهم مع أكثر من عالم من علماء المسلمين النابهين، واليوم كانت جريمتهم مع الإمام البقاعي، الذي قيل عنه أنه: أحد أوعية العلم الكبار، ومن الأئمة المتقين المتبحرين في جميع المعارف في القرن التاسع الهجري، ولنبوغه لقبوه بالإمام الكبير برهان الدين، وسبق بمصنفاته عصره، وتسبب رفضه للتقليد والتعصب والجمود، في اتهامه بالكفر، وحاكموه واضطهدوه واضطر إلى الترحال.

لقد تتلمذ علي يد ابن حجر العسقلاني ولازمه وتعلم على يديه، ولنبوغه نال إعجاب شيخه ابن حجر ورقاه وهو طالب، وجعله قارئًا للبخاري في حضور السلطان جقمق، وبرع البقاعي في جميع العلوم وفاق الأقران، وبلغ مكانة كبيرة ومنزلة عالية في علوم القرآن والتفسير وعلم الحديث والجرح والتعديل، وكان ممن يشد إليه الرحال لسماع كتبه وأسانيده،

وقد اعترف له معاصروه ومن جاء بعده بالعلم والفضل والتقدم، قال الشوكاني: "إنه من الأئمة المتقين المتبحرين في جميع المعارف، وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران وتصانيفه شاهدة"

ووصفه السيوطي بأنه: "العلامة المحدث الحافظ، مهر وبرع في الفنون ودأب في الحديث ورحل، وله تصانيف حسنة"

وقال فيه داود الأنطاكي: "وحيد زمانه ورئيس أقرانه وواحد عصره ونادرة دهره"

وقال عنه ابن العماد الحنبلي: "المحدث المفسر الإمام العلامة المؤرخ، برع وتميز وناظر، وصنف تصانيف عديدة من أجلها المناسبات القرآنية، وبالجملة فقد كان من أعاجيب الدهر وحسناته"

ويضيف مجاهد: "خلف الإمام البقاعي مصنفات كثيرة في شتى العلوم، يغلب عليها التصنيف في التفسير والتاريخ والحديث والقراءات والأدب."

تخيل معي.. عالم بهذه الصفات وبهذه المكانة الكبيرة في دنيا العلم، لم يسلم من الاضطهاد والعدوان، وتأليب العامة والحكام عليه، والثورة على علمة وآرائه ومكانته، فقد أنكر عليه العلماء المقلدون النقل من التوراة والإنجيل، وأغروا به الرؤساء فتعرض للاضطهاد، ويقول ابن الصيرفي: "وصنف كتابًا في مناسبات القرآن فقاموا عليه وأرادوا إحراق الكتاب، وتعصب عليه جماعة وأغروا به الأمير تمربغا"، ورموه بالكفر وأقاموا عليه دعوى عند القاضي المالكي، فعكف على كتابة رسالة يجيب فيها على أباطيل خصومه، ويفند ادعاءاتهم ويثبت جواز النقل من الكتابين، فاقتنع بها القاضي الزيني بن مزهر، فعذره وحكم بإسلامه.

ثم كانت المؤامرة الكبرى التي تعرض لها من الصوفية الضالة، بسبب تأليفه كتابين هاجم فيهما ابن عربي وابن الفارض، وأنكر أقوالهما في عقيدة الاتحاد الصوفية، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه في عام 874 هـ، كتب رسالة فند فيها أقوال عمر بن الفارض، وتتضمن الحكم بفسقه وتكفيره بسبب ما قاله في قصيدة التائية الكبرى، وسلمها إلى كاتب سر السلطان قايتباي.

ولما علم الصوفية بما حدث، احتالوا للاطلاع عليها وفشلوا، وعندما علم البقاعي بحيلتهم أذن لهم بالاطلاع على الرسالة والرد العلمي عليها، ولكنهم عجزوا عن ذلك، فلجأوا للمكر والتآمر، وألبوا عليه العوام والحكام ومعظم الفقهاء والطلبة بالجامع الأزهر، واشتعل الجو بالغضب على البقاعي، وتزايدت الشائعات والمؤامرات، وكادت تخرج مظاهرات العوام لتحاصر بيته وينبهوه، وأعرض خصومه عن جداله، وخوفوا الناس منه، وأهاجوا أنصار الصوفية عليه وحكموا بإهدار دمه، ودخل عليه أحدهم مرة فوجده وحده، فمازال يضربه بنعله على رأسه، حتى أشرف على التلف، وأصيب بضيق التنفس، فاعتقد العامة أن هذا سر ابن الفارض وجزاء تطاوله عليه.

هكذا كان الخلاف في العلم والرأي، يسوقهم للإرهاب وإراقة الدماء والضرب والتهديد والوعيد.

كان التعصب يُعميهم لا عن الحقيقة وحدها، وإنما يعميهم عن خشية الله تعالى والتزام حدوده، ولولا سطوة القانون في هذا العصر، لرأينا أبتاع هؤلاء الصوفية على نفس هذا المنوال، يؤذون الناس ويضربون العلماء، ولا يتورعون عن قتل كل من يخالفهم الرأي والمعتقد.!

لماذا ينبطحون؟

من الوسائل التربوية لتخريج القادة في الجماعات والأحزاب والتنظيمات، أن تربى أتباعها على الحرية والانطلاق وإبداء الرأي، وعرض الانطباعات والتعبير عن جهة النظر، فتتكون لديهم شخصيتهم المستقلة، النابعة من العلم والدراسة والتأمل والإدراك.

دعه يتكلم ويحاور ويعترض وينقد، ثم رد عليه وأكد قناعاتك التي إن كانت ظاهرة الحجة، قوية الدليل، فإنها بعد قليل ستكون حجته والرأي الذي يميل إليه.

ثم إياك أن تنتهج أسلوب القمع والوأد وإلغاء الذات، وتقديس الأنا عن أن يمسها نقد أو اعتراض، حتى تخرج قادة أسوياء أقوياء، يثقون في أنفسهم، ولا يعرفون معنى الخوف، ولا يوجد حاجز في الدنيا يمنعهم من قول الحق الذي ينطق به لسانهم، فيسعد بهم الوطن، وتستنير بهم الأمة.

أتأمل كثيرًا في ضوء هذا الفهم، طبيعة الأكثرية الغالبة من طرق التيار الصوفي وأشياعه، وكثيرًا ما كنت أتعجب من هذه النفوس الانهزامية السلبية المنبطحة، المجردة من أي نخوة وهمة وعزيمة، والتي أنتجتها الصوفية الادعائية، وكنت أندهش للمواقف التي سطرها التاريخ في حق الكثيرين منهم، أمام المستعمرين أو الظلمة الطغاة، وكيف أنهم يمالئون المستعمر ويوالون الظالم؟!

كان ذلك مُثارًا في نفسي، ويختلط به وجداني، حتى وقفت على حال ربما يُرجع إليه ويكون السبب المباشر في تكوين هذه النفوس الضعيفة، وتخريج هذه الهمم الهامدة.

فأسلوب التربية عند الصوفية يلفت الأنظار، والعلاقة بين الشيخ ومريده، علاقة تخطت كثيرًا من حواجز الطاعة، ولم تعد علاقة بين شيخ ومريد، فالصوفية في بعض رؤاها ومدارسها

وعقليات أتباعها، جعلوا من علاقة الشيخ بالمريد علاقة قدسية، وليست علاقة شيخ يُعلم ويُصحح، ويُرشد أتباعه للخير والفلاح، فبعضهم يقول:

(تجلس جلوس الصلاة عنده، وأن تفنى فيه، وألا تجلس فوق سجادته، وألا تتوضأ بإبريقه، ولا تتكئ على عكازه، واسمع إلى ما قاله بعض الأصفياء: من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح.!)

والحق أن هذا مسخ لشخصية المريد، فما يطلب منه، لم يمارسه أو يقوم به أتباع الأنبياء في تعاملهم مع أرفع الناس مقاما وقربا من الله تعالى من هؤلاء الشيوخ.!

ومن العجب أن منهم من يُنزل الشيوخ منزلة الإله الخالق الذي لا شريك له.! وقد قال الشعراني: من أشرك بشيخه شيخ آخر، وقع في الشرك بالله. وفي لطائف المنن: أن من أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دين.!

وفي الرسالة القشيرية: من صحب شيخًا من الشيوخ، ثم اعترض عليه بقلبه، فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة.

بل تخطت هذه التربية العقيمة حدودها التربوية، حينما عمدت إلى إهدار كرامة المريد، وسحق شخصيته تحت حذاء شيخه، وهو من خطل الدراويش وجهلهم، (فما يروعك إذ تبصر شيخًا كبيرًا يلعق نعل طفل صغير، مازال يتعثر في خرائه، ويتلطخ بنجاسة بوله، لا لشيء سوى أنه حفيد مولاه شيخ الطريقة، ففيه سره وفيه ربانيته.)

لكن هل يمكن لنا أن نصف هذه التربية التي تنتسب للصوفية بهذا الوصف؟

و بعيدًا عن أغراضها فكرية كانت أم روحية، فإن أي تربية تقوم على إلغاء الشخصية تحدث انتكاسة ذاتيه في أعماق صاحبها، فتخلق منه شخصًا انهزاميًا سلبيًا خائفًا مذعورًا يميل إلى الدعة وإيثار السلامة، حتى ولو كان ذلك على حساب كرامته وحريته وعزة نفسه.

ومن هنا نستطيع أن نفسر هذه السلوكيات الجبانة لدى كثير من هذه الطرق وأتباعها، ولا نتعجب ونحن نراهم يوالون الطغاة، ويميلون لمن يستعبدهم ويستذلهم، ويفرون من الجهاد والمواجهة ويخونون أمتهم وأوطانهم، لأنهم تربوا على هذا الهوان والخذلان.

إن إفساح المجال للعقول أن تستفسر، وللآراء أن تخرج، وللنقد أن يعترض ويعدل، وللشخصيات أن تعبر عن ذاتها، وجودها، ينبت معالم القيادة وبذورها في النفوس، فتخرج أجيال حرة شامخة ساطعة، لا تعيش في وطن، إلا وتصبغه بسموها وعزها وفخارها وشموخها.. فيصير وطنا قويًا حرًا عزيزًا لا ينكسر بسهولة، ولا تنال الهزيمة روحه، مادامت تحيا وترتوي بالحرية.

لقد جالت هذه الطرق والجماعات التي تحمل عنوان التصوف زيفا، فملأت حياتنا بالخرافة والبدعة ونسبت للدين ما ليس منه.!

الصوفية المجاهدة

إن المتصوفة القدماء كانوا مجاهدين، بل كانوا أكثر الناس تفانياً في نصرة الحق، وبعيداً عن القدماء، وتحديداً في القرون الأخيرة؛ نجد مثلاً رائعة في الفهم والتطبيق لصورة الصوفي الحق.

يقول الأستاذ الندوي: (سرح طرفك في هذه القرون الأخيرة ، تجد فيها أمثال الأمير عبد القادر الجزائري، والشيخ محمد أحمد السوداني، وسيدي أحمد الشريف السنوسي، والسيد الإمام أحمد الشهيد الذي كان شيخ طريقة وزعيماً روحياً في جانب، ومجاهداً وقائداً ومناضلاً في جانب آخر.)

ثم يتحدث الندوي عن أهمية الروحانية، وفضلها في حركات الجهاد والكفاح فيقول: (وذلك هو السر فيما نرى من وجود شخصية فذة قوية، على رأس كل حركة للجهاد والكفاح، نفخت في المجاهدين روح الحماسة و اليقين، وحملت هذه الشرارة إلى صدور المؤمنين الآخرين، حتى

شقت عليهم حياة الهدوء والنعيم والترف وأصبحوا لا يطيقونها، وهانت عليهم الشهادة والجهاد، والبطولة والتضحية، وعزت عليهم الحياة كما عز على غيرهم الموت، وذلك هو النموذج الكريم المفقود، والإمام المنشود المقصود الذي أشار إليه إقبال في قوله: (إن الإمام الحق وإمام العصر، هو من يبعث فيك المقت والكراهية للحاضر والموجود، يريك وجه الحبيب في مرآة الموت فينغص عليك الحياة، ويبعث فيك الشعور بالخسارة ، فيبعثك بعثاً جديداً ويسن حديدك بالفقر ، فتصبح سيفاً بتاراً لا يبقي ولا يذر)

ومن عجب أنك ترى بعض الصوفية يؤكدون دومًا إذا ما لاحت كلمة الجهاد فيقولون: إن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، وهو كلام لاشك على صواب، لأنه الجهاد الأشد والأصعب والأدوم، وهو جهاد بالليل والنهار في اليسر وفى العسر، و هو جهاد يستدعى أن يكون الإنسان يقظًا دائما، عالما بمواطن الضعف و أساليب الشيطان، و بدون هذا الجهاد الذى يزكى النفس و يطهر القلب، يفقد المرء شخصيته، و تزول مناعته و مقاومته لأى عدوان من نوع آخر.

وبالنظر في حياة الصوفية الأوائل، نراهم يقرون هذا الكلام وينطقون به، ولكنهم لم يتركوا أبدًا جهاد الكفار ومقاومة الظلمة، ولم يتخذوا هذا الكلام وسيلة لترك جهاد العدو، فقد روت لنا كتب التاريخ والتراجم قديما و حديثا، أمثلة رائعة، و صفحات مضيئة من جهاد الصوفية لأعداء الدين والأمة، فجمعوا بذلك بين جهاد النفس و جهاد أعداء الله.

و يفرد ابن الجوزي فصلا خاصًا في كتابه " صفة الصفوة " للزهاد و الصوفية الأوائل الذين رابطوا في العواصم و الثغور من أمثال أحمد بن عاصم الأنطاكى، و أبى يوسف الغسولى، وأبى إسحاق الفزارى، و عيسى بن أبى إسحاق السبيعى، و يوسف بن أسباط، و أبى معاوية بن الأسود.

و يترجم الخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " لعبد الله بن المبارك فيقول:" و كان من الربانيين في العلم و من المذكورين بالزهد، خرج من بغداد يريد المصيصة (ثغر من ثغور الروم) فصحبه الصوفية ... "

و يعد إبراهيم بن أدهم إمام المتصوفين، يذكره ابن عساكر في " تاريخ دمشق " فيقول: " كان فارسًا شجاعًا و مقاتلا باسلا، رابط في الثغور، و خاض المعارك على البيزنطيين العدو الرئيسي للدولة الإسلامية الناشئة "

ويروى ابن العديم في كتابه " بغية الطلب في تاريخ حلب " أنه في القرن الثالث الهجري تجمع الصوفية من كل صوب في ثغور الشام، إذ وفدوا إلى هذه الثغور جهادا في سبيل الله للوقوف في وجه البيزنطيين، و أشهرهم أبو القاسم القحطبي الصوفي، و أبو القاسم الأبّار، و أبو القاسم الملطى الصوفي الذى صحب الجنيد البغدادي "

و من جليل أعمال الصوفية و آثارهم الحسنة، أن الملوك و الأمراء متى قصدوا للجهاد، كان مشايخ الصوفية يحرضون أتباعهم للمشاركة في رد العدوان، وكان هؤلاء المريدون يسارعون بذلك.

ففي مصر يسطر لنا الشيخ أبو الحسن الشاذلي ت 656 هـ مثالا رائعا عن مقاومة الصوفية للغزاة، و تذكر كتب التاريخ مشاركته في معركة المنصورة ضد الصليبيين سنة 647 هج و قد التف حوله أتباعه.

و من أبرز تلاميذ الشاذلي أبو العباس المرسى ت685 هـ قال عنه ابن تغرى بردى في " النجوم الزاهرة في أخبار مصر و القاهرة " : " الإمام العارف قطب زمانه ... و كان من جملة الشهود بالثغر ... "

كما اتسم العصر الأيوبي بانتشار الصوفية، وكانت هناك علاقة وثيقة بين البيت الزنكى والأيوبي و بين رجالات التصوف، واتخذوا منهم خير سند في حروبهم مع الصليبيين و كان نور الدين محمود يُحضر مشايخ الصوفية عنده، و كان يقول عنهم :" هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننتصر على الأعداء ".

– وقد سار صلاح الدين الأيوبي على الدرب نفسه، فزاد من إنشاء الرُبُط و والخوانق والزوايا، و جعل منها مدارس عسكرية و تربوية، و يؤكد " ابن الوردى " ت 749هج في تاريخه حضور مشايخ الصوفية فتح القدس و يقول " شهد فتحه كثيرٌ من أرباب الخِرق والزهد و العلماء في مصر و الشام بحيث لم يتخلف منهم أحد ".

فإذا اتجهنا نحو المغرب، نجد أن دولة المرابطين، التي منشؤها رباط أقامه أحد الزهاد في محل ناءٍ من الصحراء، فقصده جموع غفيرة من الناس و منهم "يوسف بن تاشفين " الذى أصبح رئيسًا لدولة المرابطين فيما بعد، و هو صاحب موقعة " الزلاقة " التي انتصر فيها على الإفرنج.

و قد خلف المرابطون الموحدون و مؤسس دولتهم " المهدى بن تومرت " ت 524 هج، وكان قد رحل إلى المشرق في طلب العلم و يحكى أنه لقى أبا حامد الغزالي فى الشام و يصفه " ابن خلكان " في" وفيات الأعيان " بأنه كان ورعا ناسكا شجاعًا مخشوشنًا لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا و ركوة ....".

– كذلك كان الأمير عبد القادر الجزائري 1885 م الذى يعتبر شيخ المجاهدين في العصر الحديث، فضلا عن كونه من كبار صوفية عصره.

وهذا لا شك تاريخ عظيم إذا نظرت إليه وتأملته، وجدت التصوف وأقطابه، شعلة للجهاد والدفاع عن حمى الدين والأمة، وهو عكس ذلك الطريق السلبي المنبطح، الذي ظهر به قوم يزعمون انتسابهم للصوفية، وما هم منها في شيء.

ولا ننسى السنوسية التي حمت الشمال الإفريقي من المستعمرين مدة خمسة قرون، كانت حركة صوفية مجاهدة، نشأت وترعرعت في ليبيا، ومن أبنائها كان الأسد الهصور عمر المختار رضي الله عنه، الذي أقض مضاجع الاستعمار الإيطالي، وبدد شملهم وأجهد طاقتهم حتى نال الشهادة.

وكذلك الشيخ شامل النقشبندي الذي دوخ روسيا القيصرية ،ومحمد بن عبدالله حسن شيخ الطريقة الصالحيَّة الشاذلية و«قائد جيش الدراويش»: الذي حارب الطليان والإنجليز قرابة عشرين عامًا، حينما بدأوا يبشرون بالمسيحية، فأعلن الجهاد عام 1899، وبدأت أولى معاركه مع القوات البريطانية وهزمها عدَّة هزائم، مما جعل بريطانيا تجنح للسلم واتفاقية لوقف إطلاق النار عام 1905 استمرت سنتين، ولم تفز بريطانيا بأية معركة منذ 1901 وحتى 1905، وكانوا يلقبونه يلقبه بـ «الملا المجنون» وكان جيشه معروفا باسم «جيش الدراويش» وكذلك دولته: «دولة الدراويش».

كما كانت الطرق الصوفية الجهادية هي النواة الأولى التي تأسست منها جيوش العثمانيين الذين احترفوا القتال مربوطا بذكر الله والروح الصوفية الفدائية فانطلقوا من بؤرتهم الضيقة إلى آفاق الدنيا يهددون العالم كله.

وكان في السودان حركة المهدي التي هدمت كبرياء انجلترا، وهزمتها في مواقع كثيرة، كان هناك الأمير عبد القادر الجزائريّ الذي قاوم الاستعمار الفرنسي في الجزائر طيلة 17 عامًا، والأمير عبد الكريم الخطابي أمير دولة الريف بالمغرب الذي قاوم الاستعمار الفرنسي والإسباني، وهناك الكثير من شيوخ المجاهدين كالأمير

عثمان بن فوديو والشيخ ماء العينين، الذي قاوم الاستعمار في موريتانيا، كلهم كانوا صوفية، يقوم منهجهم على الاعتدال والفهم الحقيقي الخالص للإسلام، بعيدًا عن لوثة البدع ونوازع الخرافة.. ومن ثم كان لابد للاستعمار أن يلعب بيده الماكرة ليفسد هذا الطريق الذي يخرج هذه العقبات التي تعوق طريقه وتحطم غاياته، فعمل على غزو التصوف وتحويل مساره، عبر شيوخ البدعة والضلالة المنبطحين المهالئين للسلاطين الطائعين للمستبدين والمحتلين.

الصوفية والاستعمار

إن للتاريخ مواقف لا يمكن إهمالها أمام طمس الصوفية السلبية الخائنة، لذروة سنام الإسلام، واستبدالها بنزعات استسلامية محبطة للناس، وقفت حائط صد داخلي، ويسرت للمستعمر استيلاءه على بلاد المسلمين.

فهل يمكن أن ينسى التاريخ أن بعض قادة الصوفية في مصر، حينما وصلت الحملة الفرنسية على أبواب القاهرة، ووجب على الجميع الجهاد كفرض عين لرد المستعمر، قاموا بجمع الناس داخل الأزهر، ليتلوا كل منهم صحيح البخاري، وقبلها عندما كان الإفرنج يغيرون على المنصورة في مصر سنة (647هـ) تنادى الصوفيون ليقرؤوا الرسالة القشيرية! ثم تجادلوا في كرامات الأولياء والعدو على الأبواب.

ويقينًا لو حضرهم صاحب الأحاديث التي يتلونها – صلى الله عليه وسلم – لأنكر عليهم هذا الفعل أشد إنكار، لتخاذلهم وتخلفهم عن الجهاد وفرارهم يوم الزحف، فقد هم صلى الله عليه وسلم أن يحرق بيوت قوم بالنار لتركهم صلاة الجماعة، فكيف بمن تخاذل وخذّل الناس عن الجهاد الواجب ؟!

وهل ينسى التاريخ أن الطريقة الصوفية التيجانية الجزائرية، كانت توجه من المخابرات الفرنسية مباشرة، فكانت إحدى عميلاتهم زوجة لشيخ من شيوخ التيجانية، ولما مات تزوجت أخاه بعده، وأطلق عليها اعترافا بكراماتها "زوجة السيدين"، ولهذا كان أتباع التيجانية يحملون التراب الذي تمشي عليه سيدتهم عميلة المخابرات، لكي يتيمموا به، ونالت تلك السيدة وسام الشرف من فرنسا، اعترافا بخدماتها لهم، كما صرحوا بأنها: " كانت تعمل على تجنيد مريدين يحاربون في سبيل فرنسا، كأنهم بنيان مرصوص "

الغضب لله أول مدارج الجهاد، فالمسلم الذي يغضب لله سبحانه عندما تنتهك حرمة من حرماته، يفسح لنفسه الطريق لإنكار هذا المنكر، ومن مراتبه جهاد أعداء الدين بالنفس والمال، ومن لم يغضب من فعل تنتهك فيه حرمة من حرمات الله، فكيف سيجاهد في سبيل إنكارها؟ وكيف سينتقم لله سبحانه ممن تجرأ عليه ؟

كان النبي صلى الله عليه وسلم يغضب، لكنه لا يغضب لنفسه، بل كان يغضب لغضب رب العالمين، ففي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قال: (ما خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله) .

لقد كان الغضب مسلكا وسلوكا مضبوطا بضوابط اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الصوفية بما يأخذونه عن شيوخهم، ينفون عن أنفسهم هذا الاقتداء، بل يفترون بدعوى أن كل شيء من فعل الله، ويعتبرون الغضب على الاحتلال والاستعمار واغتصاب النساء، وقتل الناس في الطرقات اعتراضا على الله.

بل إن بعض الصوفية تُفسر الجهاد في سبيل الله سبحانه، بتفسيرات ليس لها أصل في الدين، بل تكاد تُخرج الجهاد ضد الأعداء من جملة الأعمال المشروعة في الدين، فضلا عن كونه ذروة سنام الإسلام.

ففي كتاب " عوارف المعارف لأبي حفص السهروردي " – وهو كتاب مطبوع على هامش الإحياء – نجد فيها تفسيرا لقوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " فقيل – كذبا وافتراء – : " لم يكن في زمن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– غزو يربط فيه الخيل، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة، فالرباط لجهاد النفس، والمقيم في الرباط مجاهد لنفسه!

وكثيرًا ما يرددون في مجالسهم حديثا مكذوبا نصه " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " الذي قال عنه الإمام ابن تيمية " وأما الحديث الذي يرويه بعضهم – وذكره – فلا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي – صلى الله عليه وسلم– وأفعاله " .

ولهذا فعلاقة الصوفية بالاستعمار، ليست إلا توطئة ودعما متبادلا وإعانة – بوعي أو بغير وعي – لأهداف أعداء الأمة، ويعملون على إحيائها وتمويلها ومساعدتها بكافة السبل.

وما فعله الاحتلال الأمريكي في العراق، من مساندة للطرق الصوفية، لتشكيل حركات صوفية في ديالي وكركوك وغيرها من المدن العراقية، ودعمها بكل السبل لتحل محلها في محاربة المجاهدين الساعين لطرد الاحتلال، لخير دليل على رضا تام عنهم من قبل أعداء الإسلام !

إن فكرة الصوفية التي نجابهها ونرفضها تقوم في الأساس على فكرة الفناء، التي تدعو إلى معاني الخمول والسكون، والتلاشي وعدم الذكر والبعد عن الشهرة، والبعد عن التنافس والمنافسة في أمور الحياة.

لقد أحيوا معان سلبية وحوروا بعد المفردات، لبعث طاقة الاستسلال وقبول المهانة والانبطاح والهزيمة والرضا بالظلم وتشجيع القهر والاستبداد، وهي معان غريبة ليست من الإسلام في شيء، لقد أحيوها ودعوا إليها، وحاولوا جاهدين أن يعلنوا للدنيا أنها نبض الإسلام، والإسلام منها بريء.

كان هذا تحت مصطلح الرضا، أما مصطلح الفقر، فكان سبيلا أرادوا منه رفض المال الحلال والتمتع بما أحل الله، وهجر كل سبيل لإصلاح الحياة، ليكون الإسلام مدعاة إلى الجهل والتخلف والتراجع، في الوقت الذي يتقدم فيه أعداؤه للنهوض بالحياة وأطوارها.

وهي المعاني التي فهمومها فهما خاطئا، وأولوها بما لا يرضي الله تعالى ورسوله الكريم

ولا شك أننا هنا سندرك من خلال ما نقرأ من هذا الانحراف في طريق الصوفية، كم كانوا عونا وسندًا للاستعمار في احتلال بلادنا ونهب ثرواتنا، بل كان لهم الهم الأكبر في تثبيط المجاهدين وتعطيل كفاحهم ضد المستعمرين.

يقول أحد الباحثين:

"وبمراجعة تاريخ الصوفيين في الجزائر وتونس والسودان والهند إبان الحروب التي سميت بالحروب الاستعمارية، نجد آثار تلك العلاقة واضحة في مساهمة الصوفيين بشكل متعمد، في تكريس الوجود الاستعماري ومساعدته بوجوه عدة، وتدجين الناس للخضوع له وتخذيل كل مسلم يطالب بالجهاد لمقاومتهم أو لإخراجهم .

ولم يكن هذا الخنوع للمستعمر وخدمة أهدافه، عن قناعة أو هوى لبعض الشيوخ لتلك الطرق فحسب، بل يمكن القول أن هذا بالنسبة لهم كان عقيدة فكرية وسلوكية، ويعتبرونها من التدين، ويلزمون أتباعهم بها بأن يطيعوا قادتهم أو من سُلط عليهم – مهما كانت ديانتهم أو أفعالهم – ويعتبرون الخروج عليهم أو الدعوة لمقاومتهم خروجا عن سلطان الله !!.

ويذكر في هذا المقام قول أحد قادة المستعمرين الفرنسيين في إفريقيا تلك الحقيقة المؤلمة " "لقد اضطر حكامنا الإداريون وجنودنا في إفريقيا، إلى تنشيط دعوة الطرق الدينية الإسلامية لأنها

كانت أطوع للسلطة الفرنسية، وأكثر تفهماً وانتظاماً من الطرق الوثنية التي تعرف باسم بيليدو وهاجون، أو من بعض كبار الكهان أو السحرة السود.

والجبرتي رحمه الله يسجل ما فعله نابليون عندما دخل مصر: " وفيها (أي سنة 1213هـ في ربيع الأول) : سأل صاري العسكر عن المولد النبوي، ولماذا لم يعملوه كعادتهم، فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الأحوال وتعطل الأمور وعدم المصروف، فلم يقبل وقال: (لابد من ذلك) وأعطى الشيخ البكري ثلاثمائة ريال فرانسية يستعين بها فعلقوا حبالا وقناديل واجتمع الفرنسيس يوم المولد ولعبوا ودقوا طبولهم، واحرقوا حراقة في الليل وصواريخ تصعد في الهواء ونفوطاً"

والإجابة كما يراها الجبرتي : " ورخص الفرنساوية ذلك للناس، لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع، واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات " .

ولهذا قسم المستعمر المتعاونين معه إلى فئتين أساسيتين:

"الفئة الأولى: هي فئة الشباب الذي أُخذ إلى أوروبا وانبهر بها وتربى في مدارسهم وجامعاتهم، وانقطعت صلته ببني وطنه، ثم عاد ليساهم في سلخ بلاده عن دينها.

والفئة الثانية: هم كثير من المنتسبين للطرق الصوفية الذي روجوا الإشاعات وأشاعوا الخرافات وخذلوا المجاهدين، ونشروا ثقافة الاستسلام للمستعمر الغاشم باسم الدين، فاستخدم المستعمر أبناء الفئتين واتخذ منهم جواسيس على بلادهم."

الصوفية في المعركة سلطات

العمل السياسي وروافده من الانتخابات والأحزاب والاهتمام بقضايا الأمة المصيرية.. لا يحلو للصوفية أن تشارك فيها، فهو في نظرها لا يتفق مع حقيقتها وكيانها القائم على الزهد والورع، والترفع عن كل ما يمس أمر الدنيا والجاه والسلطان.

كانت هذه هي نظرة الصوفية في العقود الماضية، لكنها في السنوات الأخيرة، أخذت تتلاشى، حيث غير الصوفية كثيراً من آرائهم وتوجهاتهم، جاء هذا التغيير، إما من ذوات أنفسهم أو بفعل فاعل.

إن مما لاشك فيه، أن هذه النظرة الاستنكارية من الصوفية للعمل السياسي، قربتهم من الأنظمة الحاكمة، التي يسرت لها الأمور، وأغدقت عليها بالأموال، وصار لها تمثيل شرعي وترخيص أمني، لا يمسهم أحد أو يسألهم سائل، بل وجدوا التشجيع والتأييد والدعم في موالدهم ومحافلهم ومنتدياتهم، وليت الأمر اقتصر على التأييد المحلي فقط، وإنما تعداه للتأييد العالمي من أمريكا والغرب.

إن الفصل بين الدين والدولة، ليس منهج العلمانيين وحدهم، وإنما أيضاً هو منهج الصوفية المعاصرة، بحجة أن ما يتعلق بشؤون الدنيا من السياسة والحكم، يتنافى مع رؤية الصوفي الحق، وهناك كثير من شيوخهم يرددون صباح مساء: لا دخل لنا بالسياسة، ولا شأن للصوفية بالسياسة، دع الملك للمالك، تماماً كما تؤمن النصرانية (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.!)

ولكن هذا المبدأ سرعان ما تخلفوا عن الإيمان والتمسك به، حينما طلب منهم في عهد الرئيس مبارك، أن يشاركوا في استفتاء رئاسة الجمهورية، ليخرج علينا الشيخ الشناوي شيخ مشايخ الطرق رحمه الله، ويعلن أنه باسم 8 مليون صوفي يؤيدون مبارك.!

كما ظهر من بعده القصبي، ليعلن أنه لا توجد موانع عقائدية أو فكرية للمتصوفة في الترشيح في الانتخابات النيابية، وأن من يترشح من الصوفية، سيكون ذلك في خدمة الوطن، وأن أتباع الدائرة من أبناء الصوفية سيقدمون له الدعم.

ولا شك أن هذا التغيير الشديد والجذري له أسبابه ودوافعه، فإن التأييد الجارف للتيار الإسلامي السياسي في انتخابات 2005م، أوجد نوعاً من الفزع تجاه النظام الحاكم وقتها، مما دفعه لدعم التيارات الدينية الأخرى، وتفعيل دورها، حتى تسحب البساط من تحت هذا التيار ذو التأييد الشعبي الكبير.

ومن ثم زجت الأنظمة بالصوفية في أتون الصراع السياسي، ظناً منه أنها قد تكون البديل عن عدوه الحقيقي، الذي يزعجه ويقض مضجعه.

إن العمل بالسياسة من صميم الإسلام، ولا ينكر ذلك إلا جاهل غير مدرك لطبيعة هذا الدين العظيم، وشيء مفرح أن تقوم الصوفية بدورها، وتفوق من ثباتها، وتخطوا خطواتها نحو الفهم الصحيح للإسلام، حتى تكون رافدًا من روافد النهوض وعودة المجتمع القرآني، تشارك في هذا العمل وهي بصيرة واعية بمصالح الإسلام وحده ونهوضه وانتصاره، لا بمصالح المنتفعين والانتهازيين الذين يتخذونهم مطية وغرضًا لتحقيق أهدافهم.

وفي زيارة مهمة للرئيس الباكستاني الأسبق (برفيز مشرف) إلى الهند شملت إجراء محادثات مع رئيس الوزراء الهندي (مانموهان سينج) توجه الرئيس (مشرف) لولاية راجستان بغرب الهند لزيارة ضريح إسلامي بارز، ثم توجه إلى العاصمة دلهي.

وقام الرئيس الجزائري الراحل (عبد العزيز بوتفليقة) بزيارات مكثفة لعدد من زوايا وأضرحة (الأولياء والصالحين) المنتشرة في مختلف أنحاء الجزائر؛ لزيادة

شعبيته لدى عدد كبير من الجزائريين الذين يتبركون بهؤلاء الأولياء، وذلك قبيل الانتخابات الرئاسية التي أقيمت في الثامن من إبريل (2004م)

وفي العراق أيضاً ـ في مدينة كركوك ـ أوضح عدد من أهالي المدينة أن مِن المتصوفة في المدينة مَن أخذوا يهادنون الاحتلال والحكومة المعينة خوفاً من الاعتقال، خاصة شيخ الطريقة الكستزانية ويدعى محمد الكستزاني والذي أعلن قبل أشهر: أن الجهاد في العراق ينبغي أن تنطبق عليه عدة شروط قبل إعلانه منها: صفاء القلب وتحقيق الصلة بين العبد وربه. وهو ما أثار حفيظة المقاومة العراقية وأهالي المدينة على حد سواء.

ثم انظر لنفس السياسة في التجربة المغربية حيث جمع الملك محمد السادس عاهل المغرب زعماء الصوفية، ومنحهم ملايين الدولارات كمعونة يشكلون بها حائط الصد الديني ضد الجماعات الإسلامية التي تنتهج المسار السياسي.. ولم يقف الأمر عند هذا وحده، وإنما كانت هناك رعاية رسمية للتصوف، تأخذ أشكالا ومظاهر عدة؛ على رأسها تكثيف عقد وتنظيم ندوات وملتقيات تعنى بالتصوف والزوايا، بحيث لا يمر شهر دون الحديث عن تنظيم ندوة أو تظاهرة عن التصوف، وفي الوقت ذاته يتم للتصوف ترويج واسع عبر وسائل الإعلام الوطنية المكتوبة والمسموعة والمرئية، مصحوبة بتنظيم المهرجانات الصوفية القائمة على "الموسيقى الروحية" أو" السماع الصوفي".

وتم تسخير الإعلام الرسمي لنقل فعاليات مواسم الطريقة البودشيشية السنوية بشكل مكثف وغير مسبوق، كما تم العمل على تشجيع الإسلام "الطرقي" من خلال أشكال وصيغ متعددة، من بينها تقديم الهدايا والذبائح التي تقدم للزوايا في كل مناسبة دينية وباسم الملك،

حيث يتم الحرص على تقديمها بحضور الحاجب الملكي وعامل الإقليم، الذي توجد الزاوية في مجال نفوذه.

وقد بدأ هذا التوجه ينمو بقوة ويحالف التصوف المتبلد الخامل المستكين الانهزامي، ليكون هو الموئل الديني السائد لكل راغب في التدين، وليكون بديلا عن الإسلام السياسي الذي يؤرق الحكومات ويهدد بقاءها ويخالف سياستها، بل وصل الأمر لأبعد من التشجيع والترويج لإشراك هذا النوع من التصوف في عملية الحكم، لتكون له الأدوات اللازمة في مواجهة الظواهر الإسلامية الأخرى.

وتنصب طبيعة التنشئة السياسية التي يتلقاها مريدو الزوايا والطرق الصوفية بشكل متزايد الثقافة السياسية القائمة على الانكفاء والانشغال بالدين بمفهومه الطقوسي والشعائري، بعيدا عن الاهتمام والخوض في أمور الشأن العام، وبالتالي تكريس مزيد من السلبية السياسية التي تؤدي إلى تزايد عدد أعضاء التيار الديني الشعبي الموالي للسلطة السياسية، بالإضافة إلى أنها تشكل أحد الروافد الأساسية لجلب التأييد وإحياء الولاء الديني والروحي للملك.

حتى وجدنا وزير الأوقاف والشئون الإسلامية في المغرب يقول: "إن هذا المقوم (التصوف) ينبغي أن يحفظ وأن يتعهده المجتمع"

وخاطب الملك محمد السادس نفسه المشاركين في الملتقى العالمي الأول للتصوف في سيدي شيكر، والذي نظم بمدينة مراكش يوم 10-9-2004، من خلال رسالة ملكية، قائلا: "ولا شك أن في تجربتكم الموروثة من أجل تحقيق هذه الأهداف، ما يؤهلكم للعودة إلى الميدان الديني والتربوي والاجتماعي المنزه، عن كل توظيف سياسي رخيص أو مغرض، متحلين بقيم التصوف الأصيل القائم على الجمع بين الورع والتقوى والاستقامة في السلوك، وبين العمل الخالص المنزه عن الأغراض الذاتية، سيما أن المجتمعات في عصرنا هذا، قد أخذت في

إعلاء كل قيم التجرد والتسامح، وفي الأخذ بعدد من مفاهيم الثقافة التي قامت عليها طريقتكم".

ولا شك أن هذا النص، يعكس بما لا يدع مجالا للشك، قوة وحجم الرهان على "الإسلام الصوفي" في تدبير التحديات الراهنة التي يفرضها الحقل الديني بالمغرب، غير أن هذه الاعتبارات الداخلية المفسرة لتزايد الاهتمام بالزوايا والطرق الصوفية، لا تنفي المتغير الخارجي باعتباره عاملا مركزيا يفسر ويؤثر في حجم درجة الاهتمام "بالإسلام الصوفي".

خيانة الدراويش

لماذا التصوف؟

سؤال مهم لمن أراد معرفة الأهمية التي نوليها للتصوف، فإنه وهو المذهب الرائع، والمنحى الراقي، الذي يبلغ بالنفس ويحوم بها حول مراتب الكمال والطهر، ويصفيها وينقيها ويخلصها لله تعالى في هذه الحياة، ومع ذلك تشوبه شوائب تفسد العقيدة، وتهدم الدين، وتحيد بالمسلم عن الطريق القويم، إذا لم يكن على يقظة تامة وهو يخوض غماره، ويسلكك طريقه، وينضوي تحت رايته.!

ورغم أنه الطريق القويم الذي كان الأوائل يتخذونه سبيلا لنصرة الإسلام، والجهاد في سبيله، وقمع أطماع المحتلين، استطاع كذلك أذناب المستعمرين أن يتسربوا من خلاله، ليجعلوا منه مطية تمكن الاستعمار من ربوع الأمة وأوطانها الغالية، ولا شك أن هذا تناقض كبير، وجب الوقوف عليه وتوضيح أمره ومغزاه.

لاشك أن الاستعمار وجد في التصوف البدعي الانبطاحي السلبي التخريفي، ركيزة كبيرة، وعاملا أكيدًا لنجاح احتلاله، وتأنيث الجماهير العربية، وإخماد جذوة الجهاد فيها، حتى بدأت بعض الجهات تستجيب لنداء التصوف الانبطاحي، فتعرض وتفر ويموت حماسها عن

مواجهة العدو، ومقاتلة المحتلين الغاصبين، وهكذا ابتعد كثير منهم عن الإسلام وتعاليمه، واتبعوا تعاليم التصوف البدعي الخرافي المنهزم، هكذا صارت كلمة التصوف وشيوخه الضالين في كثير من الأحايين والمشاهد، أقوى وأنفذ من كلمة الله في قلوب المسلمين، الذين أعطوا آذانهم وقلوبهم وعقولهم لهؤلاء المخرفين.

تأمل هذه الحكاية العجيبة، التي ذكرها زعيم الوطنية مصطفى كامل في كتابة المسألة الشرقية حيث يقول: (ومن الأمور المشهورة عن الاحتلال الفرنسي للقيروان في تونس أن رجلاً فرنسياً دخل الإسلام وسمى نفسه "سيد أحمد الهادي"، واجتهد في تحصيل الشريعة حتى وصل إلى درجة عالية، وعين إماماً لمسجد كبير بالقيروان، فلما اقترب الجنود الفرنسيون من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها، وجاءوا يسألونه أن يستشير الضريح الذي في المسجد ودخل "سيدي أحمد الهادي" الضريح، ثم خرج يقول: إن الشيخ ينصحكم بالتسليم، لأن وقوع البلاد صار محتماً، فاتبع القوم كلمته، ودخل الفرنسيون آمنين في 26 أكتوبر سنة 1881)

وَجَاءَ فِي كِتَابِ " كُتُبٌ لَيْسَتْ مِنَ الإِسْلاَمِ" للاسطنبولي:

" إِنّ الفرنسيين إبّانَ استعمارهم لِتُوْنُس كَانُوا يَجِدُوْنَ مُعَارَضَةً شَدِيْدَةً مِنَ النَّاسِ، فَتَفَاهَم الفرنسيون مَعَ شَّيْخِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى أَنْ يَدْخُلُوا البِلاَدَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ، قَعَدَ الشَّيْخُ مُطْرِقاً رَأْسَهُ وَهُو يَقُوْلُ: " لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ "، فَلَمَّا سَأَلَهُ أَتْبَاعُهُ عَنِ الأَمْرِ الَّذِي يُقْلِقُهُ، قَالَ لَهُمْ: " لَقَدْ رَأَيْتُ الخَضِرِ وَسَيِّدِي أَبَا العَبَّاسِ الشَّاذلِي، وَهُمَا قَابِضَانِ بِحصَانِ جِنرالِ فرنسا، ثُمّ أَوكَلا الجِنرالَ أَمرَ تُوْنُس، يَا جَمَاعَة؛ هَذَا أَمرُ اللهِ فَمَا العَمَلُ؟ فَقَالُوا لَهُ: " إِذَا كَانَ سَيِّدِي أَبُو العَبَّاسِ رَاضِياً، وَنَحْنُ نُحَارِبُ فِي سَبِيْلَهِ، فَلا دَاعِي لِلْحَرْبِ، ثُمّ دَخَلَ الجَيْشُ الفرنسي تُوْنُس دُوْنَ مُقَاومَةٍ.!

وذكر الرئيس التونسي السابق بُورقَيْبَةَ قوله: " إِنَّنِي اطَّلَعْتُ عَلَى المِيزَانِيةِ الفرنسيةِ، فَوَجَدْتُ فِيهَا مُخَصَّصَاتٍ ضَخْمَةً للطُّرُق الصُّوفِيَّةِ لأَنَّهَا تُخْدَرُ المُسْلِمِيْنَ عَنِ الجِهَادِ "

ويذكر الكاتب والعالم الكبير (عمر فروخ) في كتابه الأشهر عن التصوف: أن أبا حامد الغزالي وهو من هو علمًا وقدرًا، وصاحب كتاب الإحياء، وما أدراك ما الإحياء؟ شهد القدس تسقط على يد الصليبيين، وعاش 12 سنة، بعد ذلك ولا يشر إلى هذه النازلة وهذا الحدث الضخم، ولم يكن له أي دور في الجهاد وتعبئة الناس ضد الغزاة.!

لكن لدينا هنا سؤال، هل يشترط ليثبت أن الغزالي قام بدور ملموس في الجهاد، أن يدون ذلك ويسجله في كتبه؟ أعتقد أنه يمكن أن يكون قام بدوره، و ليس شرطًا أن يدون ذلك في الصفحات حتى نعرفه، لعله خشي أن يكون هذا العمل لغير وجه الله فكتمه، أو لم ينقل عنه لعلة ما، لكننا نثق أن مثل الغزالي في فهمه ووعيه، لا يمكن أن يغفل أن يقوم بمثل هذا الدور، أو أن يتخلى عن واجبه الديني، ودوره القيادي والجهادي ضد الغزاة، ففرق كبير بين فهم هؤلاء الأئمة الميامين الصادقين، وفهم كثير من أتباع الطريق الذين تبرؤوا من العلم وتحللوا من هديه.

وليس معنى أنه صوفي أن أدعي أن ذلك طبيعيًا لغفلة الصوفية عن الجهاد، وميلوهم للاستكانة والهمم الضعيفة المنهزمة، وقد ثبتت هناك أدوار جهادية بطولية لأئمة وحركات صوفية كثيرة. لقد كتب الإمام الغزالي إلى ابن تاشفين ملك المغرب فقال له : (إما أن تحمل سيفك في سبيل الله ونجدة إخوانك في الأندلس، وإما أن تعتزل إمارة المسلمين حتى ينهض بحقهم سواك) .

بل قال في كتاب الإحياء للإمام الغزالي: "... إن المنافقين كرهوا القتال، خوفاً من الموت، أما الزاهدون المحبون لله تعالى، فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص" وفي موطن آخر يقول

حجة الإسلام : "ولقد عظم الخوف من أمر الخاتمة فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة".

كما ذكر فروخ: أن ابن عربي وابن الفارض عاشا كذلك في إبان الحروب الصليبية، ولم يرد لتلك الحروب ذكر في آثارهما، ويقال: إنه بينما كان الإفرنج يغيرون على المنصورة في مصر عام 647هـ تنادى المتصوفة بقراءة رسالة القشيري وتجادلوا في كرامات الأولياء.

ولا أعرف كيف له أن يغفل ما ورد عن ابن عربي و قوله للملك الكامل حينما تخاذل في قتال الصليبيين: (إنك دنئ الهمة، والإسلام لن يعترف بأمثالك، فانهض للقتال أو نقاتلك كما نقاتلهم)

وذكر كذلك أن السبكي ذكر أن الشيخ عز الدين بن مهذب السلمي الدمشقي ورد إلى مصر، فلما كانت وقعة المنصورة ورأى حال المسلمين، نادى بأعلى صوته مشيرا إلى الريح، يا ريح خذيهم.! فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح نصر للمسلمين وغرق أكثر الفرنج.

وأنا ألوم الباحث الكبير الدكتور عمر فروخ، لأن مجرد ذكر هذه الحادثة، حتى ولو كانت ملتاثة بالخرافة، فيكفي أن الرجل اهتم بالجهاد وآمن به، واندفعت همته للتضامن مع قومه، وهاجم العدو حتى ولو بالريح والخرافة، ولم يقل كما قال بعضهم: إنهم قدر الله الذي لا تجب محاربته، وحذر بعضهم من مواجهة العدو، لما في ذلك من الضرر والمخاطر.!

لكن هذا الباحث الكبير وهو الأستاذ عمر فروخ وفي كتابه الشهير عن التصوف والصوفية، كيف له أن يغفل ولا يذكر دور وجهود أبو الحسن الشاذلي القطب الصوفي الكبير، في حروبه ضد الصليبيين في معركة المنصورة، وانتدابه للناس وتحريضه على الغزاة، وهو يذكر هذه النماذج المعوجة الغافلة المقصرة في نظره؟!

إننا رغم غضبنا واستنكارنا لأفكار فئات من الصوفية الانهزامية الخانعة العميلة، فإننا مع هذا النكران، لا نجهل أبدًا أو نتغاضى عن صوفية الحق واليقظة والفهم الواعي للدين، والمسارعين لبذل الغالي والنفيس، والتضحية بالنفس في ميادين الجهاد.؟!

صوفي يجابه الطغاة

كثيرًا ما تستوقفني في قراءاتي سيرة الصوفية القدماء إذا مررت بخبر أحدهم وحياته، وأحاول أن أنقب في هذه الحياة، كيف كانت وكيف صار فيها وكيف وماذا فعل؟

وفي هذا التأمل معنى مقصود، لأنني أؤمن إيمانا شديدا أن صوفية اليوم، على غير ما كان عليه صوفية الأمس، وأنهم حرفوا وبدلوا كثيرا من آثار وطريق أسلافهم المباركين، الذين كانوا يقدسون الحق وينصرون الصدق، ولا يخافون في الله لومة لائم، ويقفون في وجه الطغاة والجبابرة غير هيابين لهم أو مرتاعين لسلطانهم، وما ذلك إلا لأن سلطان الله تعالى في نفوسهم أقوى وأكبر من كل شيء.!

قريبا كنت أقرأ في كتاب (أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر)[1] وعلمت من سيرة الرجل أنه لزم طريق التصوف والزهد وبلغ فيها مبلغا بعيدا، "فكان لا يقرب مباهج الدنيا، ولا يسمح لها أن تمس قلبه المتفرد بحب الله وحده، ولك أن تتخيل في الطرطوشي ما يصل إلى عقلك وفكرك من معاني الزهد والتصوف والتقشف والقناعة والبساطة والرضا بالقليل، فقد كان الرجل على هذا وأكثر.!

ولكن صوفية الأمس حينما تتحدث عنهم، وتتناول ذكرهم، تجد نفسك مضطرًا أن ترى عيبا كبيرا، إن أنت توقفت في حياتهم على هذه المعاني وحدها، فهناك باب كبير يلقي بضوئه، فيلفتنا إلى ما وراءه من سمات كبرى كانت أكثر اهتماما وأشد حفاوة في تاريخ هؤلاء بما ذكر عنهم من حياة الزهد والتصوف.. وهي جرأتهم في الحق وتحديهم للطغيان.. فأبو بكر الطرطوشي

[1] - للدكتور الشيال

الذي يشاع عنه بأنه رحالة، وبأنه زاهد متصوف، كان من أجرأ الناس على قول الحق والاستماتة في سبيله، مهما كانت العواقب، يطبق الشرع ويحارب البدع، مهما كانت غالبة مستأسدة، لا يخشى العواقب مادام يسير في أمره إلى الله وبالله، وصفه ابن فرحون بأنه كان أبيّ النفس، ووصفه المقري بأنه كان قوالا للحق.!

وقدر له أن يأتي إلى مصر ويستوطن الإسكندرية، التي تعرضت لمحنة هائلة أيام الوزير الأفضل بدر الدين الجمالي، الذي قتل علماءها وأباد أعيانها، لأنهم تحالفوا مع الخارجين على خلافة ابن المستنصر، ورأى الطرطوشي أن يتوجه إلى الفساط، ويقابل هذا الوزير الطاغية، بعد أن سمع عن جبروته وقوته، ذهب إليه لا ليسأله المنح والعطاء، أو يقوم بمدحه وتملقه، وإنما ليوجه إليه النصيحة الهادية المخلصة، التي تحثه على العدل والرفق، وفتح بابه للمظلومين والشاكين.

وشاء القدر أن يسجل الطرطوشي هذه النصيحة في كتابه سراج الملوك حيث قال فيها: " دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا، وأكرمني إكراما جزيلا، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه، فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلا عليا شامخا، وأنزلك منزلا شريفا باذخا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك فى حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان، قال الله تعالى:{اعملوا آل داود شكرا} واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك، إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير، قال الله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون} وقال تعالى: {وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين} واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم،

وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له:{هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب} فو الله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به، فقال:{هذا من فضل ربى ليبلوني أأشكر أم أكفر} فافتح الباب وسهل الحجاب، وانصر المظلوم وأغث الملهوف، أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفًا للملهوف وأمانا للخائف، ثم أتممت المجلس بأن قلت: قد جبت البلاد شرقا وغربا، فما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولذت لى الإقامة فيها غير هذه المملكة، ثم أنشدته:

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا ** حتى يروا عنده آثار إحسان."

وربما تتعجب من أننا سقنا هذا الموقف للتدليل على اختلاف حال الصوفية القدامى عن صوفية هذا الزمان، مع أنها مجرد نصيحة باللسان وألفاظا من البيان، فلم تقم بسيف ولم يقم صاحبها على الملك بالغضب والثورة والإهانة والتوبيخ، مما يشهد له بالشجاعة والإقدام.!

والحق أنها نصيحة هادئة ترشد هذا الطاغية لما فيه خير البلاد والعباد، وتحمل من معاني التخويف بالله تعالى كثيرا من الإشارات، وذكره فيه بالزوال والهلاك، كما كان شأن الأسلاف، ممن قعدوا مقعده، وجلسوا مجلسه وقبضوا على عرشه، كما خوف الطاغية من مكر الله تعالى واستدراجه، فأي جسارة قام بها الطرطوشي، حينما قدم هذه النصيحة العبقرية، التي جمعت عناصر التضاد بين القسوة واللين، والزجر والرفق.

إن نصيحة الطرطوشي لطاغية مصر، تظل في التاريخ بدرًا ساطعا يعلن البراءة من صوفية الانبطاح الذين أدمنوا تقديس الظالمين والتسبيح بحمد الطاغين، فجبنوا عن لقاء الباطل، وتحدي الرذائل، وأبطلوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأشاعوا قوله حق يراد بها باطل، فقالوا: دع الملك للمالك، وقبعوا في دهاليز الذكر، وهجروا قول الحق، وفروا من نصرة الدين، وتبرؤوا من جهاد الظالمين.

أما صوفية اليوم فما أن يحضر الظالم مجالسهم ويشاركهم في موالدهم، حتى يرفعوه إلى مقام الأنبياء، ويجعلوه من خلص الأولياء، وينافحوا عن اسمه مستميتين، ويباركوا حكمه مقدسين، ويناصرونه في الباطل حتى لو كان عدوا للقرآن والشريعة.!

وكان للطرطوشي إلى جانب هذا، فتاوى كثيرة، يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التي تأخذ بها الدولة، ولم يقل إني موظف في الدولة، ولم يرفع شعار الزور: دع الملك للمالك، فهو مثلا قد أفتى في الإسكندرية بتحريم الجبن الذي يأتي من الروم إلى المدينة، وألف في تحريمه رسالة صغيرة، وانتقد كثيرا من العادات السائدة في المجتمع مما يتنافى مع الإسلام، ويؤلف في نقدها كتابا أسماه "بدع الأمور ومحدثاتها" وأمام هذا استدعاه الوزير الأفضل بعد وشاية الواشين، فخاف منه ومن تأثيره، ورأى أن يستدعيه ويحدد إقامته ويكون تحت عينه، فلو أنه ترك هذا الزاهد الثائر على سياسته في نقد المجتمع والحاكم، وانتقاد القاضي وأحكامه، وانتقاد القواعد والنظم المالية المتبعة، فإنه سيسبب للدولة متاعب كثيرة ما أغناهم عنها، وظل في اعتقاله، حتى كشف الله الغمة عنه بقتل الأفضل، فرجع إلى الإسكندرية واحتفى به الوزير الجديد المأمون البطائحي وقربه منه، وفور عودته إلى الإسكندرية، شرع في تأليف كتاب جديد في السياسة وفن الحكم، وما يجب على الراعي والرعية، وأتمه في سنة كاملة وسماه سراج الملوك، وسافر إلى القاهرة ليقدمه للوزير الجديد، ويعيد معه الحديث فيما ينتقده من أمور الدولة.

فواعجبا صوفي يؤلف كتابا في السياسة وفن الحكم، لكأن هذا من مدهشات الدنيا..

فأي سيرة هذه التي يحملها رجل صوفي، وأي عالم هذا ينتسب للصوفية؟ بل أي صوفية هذه التي يجسدها رجل يثور وينتقد وينتفض ويعترض؟ وما أغرب الصوفية الذين تمردوا على حقيقتهم وطريقتهم وأسلافهم فابتدعوا وحرفوا وبدلوا.؟!

دستور أخلاق العلماء

إن حبي للتراجم وولعي بها، ساقني لتعقب مصنفاتها وكل ما سطره العلماء والدعاة والأدباء والمفكرون والعباقرة والموهوبون، عن حياتهم الشخصية، وسيرتهم الذاتية، مسلمين وغير مسلمين، قريبين وبعيدين، عرب وأجانب، سلف وخلف.

حتى اهتديت مؤخرًا لكتاب (لطائف المنن والأخلاق) لشيخ الإسلام وإمام الزمان (عبد الوهاب الشعراني) ، والذي كان ترجمة لحياته ورصدًا لأخلاقه وصفاته، وشرحا وافيا ومبينا لحاله، وتعريفا بنعمة الله ومنته عليه.!

وقد عمد الرجل في تأليفه لهذا المصنف إلى جملة أهداف، كان أهمها أن يقتدي من معه، بخلقه وصفاته، فقد قال:(ليقتدي بي إخواني فيها، فيتخلقوا بها) ولكني في الحقيقة حينما طالعت السيرة وما ذكره من حاله، لم أجده في نظري وعقلي من كتب الترجمة والسيرة الذاتية والتعريف بالكاتب، بقدر ما وجدته دستورًا ومنهجا للعلماء والدعاة والعارفين، وسالكي دروب القرب والمعرفة، يبين لهم الصورة المثلى والخلق الأسمى، الذي يكونون عليه ويظهرون به ويتخلقون بسجاياه.

وإنك لتعلم جليا أن أسوأ ما يضر العَالِم هو تعلق قلبه بالدنيا، وطمعه في غرورها وسعيه إلى مناصبها، والجري وراء مفاتنها، وهي أحوال تتنافى مع مقام العلم وخلق العلماء، يمكن لك كعالم أن تكون غنيا ويرزقك الله من مباهج الدنيا، لكنك لم تسع إليها ولم تدخل قلبك، ولا يضر هنا مثول الغِنى والمال بين يديك، ما دام قلبك عامرا بالقناعة مليئا بالرضا محصنا بغنى النفس.

كتاب عظيم النفع تقف أمام كل كلمة فيه، وتتأمل كل جملة كتبت في سطوره، فلا أخفي عليك أن أخلاق الرجل بهرتني، وسجاياه أعجبتني، فقد كانت حياته وكان عليه فيها من جميل الأخلاق، حياة تشبه حياة الأنبياء، ولم لا وهو وريثهم فالعلماء ورثة الأنبياء؟ لكن أكثر ما شد انتباهي في أخلاق الإمام الشعراني، من كريم أخلاقه وجميل مزاياه، هو صفة القناعة الشديدة، والإباء الظاهر، والعفة التي تحلت بها نفسه، ولعلها أكثر وأبرز ما جذب اهتمامي ولفت

نظري، لكثرة ما نرى حولنا من علماء أدنياء رخيصو النفس، ضئيلو الكرامة، يبيعون دينهم بدنياه.

لقد ذكر الإمام الجليل كثيرا من شمم نفسه ومناقبها في سطور متفرقة وفصول متباينة، حتى لا تظن أنها كانت مجمعة أو مفصلة، فقد أجهدت نفسي في ترتيبها والتنقيب عنها، والبحث عن شواهدها، ورأيت من الخير العميم أن أجمع بعضها للقارئ في هذا المقال، حتى تكون في المقام الأول، رسالة لطلاب الأخلاق من علماء الزمان، الذين أهانوا علمهم حينما جعلوه طريقا لنيل الدنيا وطلب المناصب، والسعي بلعابهم خلف غرورها الفاني، حتى أضاعوا هيبة العلم، ورخصوا عرين العلماء، وأفسدوا على الناس دينهم، وأحنوا للباطل هاماتهم وعمائمهم، وتكون صورة نقية تعكس طبيعة الروح السامقة التي يجب أن يكون عليها ويتحلى بخلالها الصوفي الصادق.

انظر ما كتب الشعراني وحدثنا به عن نفسه:

-ثم بلوغي مقام الزهد، إلى أن صار عندي الذهب والتراب على حد سواء من غير ترجيح، ثم ذكرت أني بلغت مقام الزهد إلى أنه لو أمطرت السماء ذهبا وصار الناس ينتهبونه، لم أجد لي داعية إلى أخذ شيء منه إلا لأمر مشروع.

- ولو أنني مررت على تلال الذهب والفضة، من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا، ولا حساب عليها في العقبى، لم أتناول منها دينارا واحدا إلا لضرورة شرعية، ولو أن البغلة دخلت داري في الليل محملة ذهبا ونحوه، أخرجتها من داري بذهبها خوفا من طول الحساب يوم القيامة، ثم إنه لو كان عندي ما شاء الله من الذهب، فسرقه إنسان أو أخذه من بين يدي وأنا أنظره، لا أتبعه ولا بوكيلي هوانا بالدنيا.

- ثم كراهيتي للأكل من شيء أُعطيته من الناس على أني من الصوفية، لأنه أكل بالدين.

- ثم فرحي بالفقر إذا أقبل.!

- ثم عدم طلبي لشيء من مناصب الدنيا منذ وعيت على نفسي.

- ثم عدم شهوة نفسي لشيء من المطاعم والملابس إذا دخلت سوق الطعام واللباس.

- ثم ردي كل شيء يأتيني من الولاة، وإن قبلته رميته بين الحاضرين ولا آخذ منه شيئا.

- ثم عدم خوفي من أحد من الولاة، لأنهم لا يُسَلطون إلا على من يحب الدنيا غالبا.

- ثم كراهتي للأكل من الصدقات الخاصة دون العامة، كالأوقاف على فقراء المسلمين.

- ثم إلهامي إلى أني أطلب الحوائج من أبوابها دون غيرها، ثم قضاء الحوائج من الحكام مع عدم الوقوف فيما ينقص ديني بسبب ذلك من تزكية نفسي على ألسنة الوسائط أوغيرها.

- ثم عدم طلبي للثواب على شيء من أعمالي إلا من باب الفضل والمنة دون الاستحقاق.

- ثم عدم طلب نفسي مقاما عند الخلق دون الله سبحانه وتعالى.

- وعدم احتياجي لقبولي مرتبا من بيت مال المسلمين أو مسموحا، ولو سألوني في ذلك، ثم حمايتي من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانهم.

- ثم إنصافي لكل من عاملني في بيع أو شراء، وإذا استأجر مني شخص دولابا أو رزقة أو مركبا ولم ينتفع بها، لا آخذ منه أجرة، ولو سألني هو فيها رددتها عليه.

- ثم حمايتي من الأكل من طعام من شفعت عنده أو شفعت له، أو قبولي هدية من أحدهما.

- ثم عدم بخلي بشيء دخل في يدي من الدنيا على من يستحقه، سواء النقود وغيرها.

- ثم كراهتي للأكل في ضيافة الأوقاف التي تحت نظري أو نظر غيري، وعدم استقرارها في جوفي إذا أكلت منها ولو سهوا.

- نعمة كراهتي للأكل من صدقة أو هدية علمت أن في بلد المتصدق أو المُهدي من هو أحوج إلى ذلك مني.

- ثم عدم قبولي شيئا أعطاه لي الناظر من وقف المرتب.

- ثم عدم التفات نفسي إلى شيء من الدنيا إذا ضاع مني، سواء قل أو كثر إلا أن يكون لغيري.

- ثم عدم مزاحمتي لشيء فيه رياسة دنيوية أو يؤول إلى الدنيا من جاه أو نشر أو صيت.

- ثم عدم ترددي إلى بيوت الحكام لغير ضرورة شرعية.

- ثم عدم تكدري على شيء فاتني من الدنيا أو ممن صدها عني، ثم انشراح صدري إذا أصبحت وأمسيت وليس عندي شيء من الدنيا.

- ثم عدم أكلي من طعام من يعتقد في الصلاح خوفا من الأكل بديني.
- ثم كراهتي لقبول شيء من هدايا العمال والولاة، وعدم مزاحمتي على صحبة أحد من الولاة.
- ثم صحة توجهي إلى الله تعالى في دفع الدنيا عني.

وأكتفي هنا بهذا القدر من قناعة الامام الشعراني وإباء نفسه وعزة ذاته، ولو قلبنا في صفحات الكتاب لوجدا كثيرا من الشواهد التي تدعم ذلك وتؤيده، لتكون قدوة لمن بعده من العلماء والعارفين، ومسارا لكل من يسلك طريق التصوف.

الأمريكان على الخط[1]

المشروع الأمريكي لدعم الصوفية بدا واضحاً من خلال زيارة ومشاركة بعض المسؤولين الأمريكيين لاحتفالات الطرق وموالدها، وهذا الاهتمام ليس في مصر وحدها، وإنما في العديد من دول العالم العربي والإسلامي، فهو تكتيك جديد، ومخطط واضح المعالم للسياسة الأمريكية.

(ظهر جلياً أن من أهم أهداف الخطة الأمريكية المسماة بـ (مشروع الشرق الأوسط الكبير) محاربة التيارات الإسلامية، التي تتصدى للعدوان الأمريكي، تحت شعار: (محاربة الإرهاب). ويرى المروِّجون لهذا المشروع أن القوة المادية عسكرية كانت أم اقتصادية، لا تكفي لهدم فكرة وبناء أخرى؛ فلا بد إذن من تيار إسلامي معارض لتلك التيارات، منسجم مع الرؤية الأمريكية لمنطقة الشرق الأوسط.

يقول المستشرق الفرنسي المسلم إريك جيوفروي ـ المتخصص في الصوفية بجامعة لوكسمبورج، شمال فرنسا ـ في حوار صحفي: (وفي علاقتها بالحركات الإسلامية

[1] ـ راجع دراسة (نقض العرى .. رؤية في البديل الغربي للتيار الصوفي) لمحمد بن عبد الله المقدي بموقع صيد الفوائد

بالذات، نجد أن الأنظمة العربية عملت على إدماج الصوفية في الحكم بهدف محاربة الظاهرة الإسلامية).

ويقول استيفن شوارتز: "فإذا وجدنا في أحد أطراف الطيف المذهبَ الوهابي المتعصب، الذي يتصف بالقسوة والاستبداد ما يجعله أشبه بالإيديولوجية العربية الرسمية السائدة منه بالمذهب الديني؛ فإننا نجد في الطرف الآخر التعاليم المتنورة للصوفية، لا تؤكد هذه التعاليم على الحوار داخل الإسلام، وعلى الفصل بين السلطة الروحية وسلطة رجال الدين وعلى التعليم باللغة المحلية فحسب، بل إنها تحترم أيضاً جميع المؤمنين، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود أو هندوسيين أو بوذيين أو من ديانات أخرى، تشدد الصوفية علاوة على ذلك على التزامها باللطف والتفاعل والتعاون المتبادل بين المؤمنين بغض النظر عن مذاهبهم."

لقد رأوا في المتصوفة نموذجاً للإسلام المستأنس اللطيف القابل للتطويع والتوجيه.. فأسرعوا لدعمه وتأييده، وتشجيع الحكومات أن تهتم به وتروج له، وتنفق الأموال لنشره وذيوعه، ولأن أتباعه حصروه في المسبحة والتمايل، ولأنهم في أمس الحاجة لهذا التيار الانهزامي المتراجع، الذي يرضى بالهوان ويألف الذلة، ويؤصل لهما عقدياً وفكرياً، حيث قال بعض جهلتهم من قبل: (إن الاستعمار قدر ومن الحمق مخالفة القدر) والغرب أحوج ما يكون لمن يدعم عملهم الاستعماري، ويساعدهم في السيطرة على العقل الإسلامي، وتغيير حياة وطبيعة الشعوب الإسلامية، إنهم أحوج ما يكون إلى عملاء في قلب التيار المتدين نفسه، الذي يعد

العقبة الكأداء في طريقهم، ودور هؤلاء العملاء أن يميعوا القضية، ويزرعون الوهن في النفوس.

إن فلولاً من هؤلاء لطخوا تاريخ الصوفية بالعار، حينما حرموا مجاهدة الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي؛ بحجة أنه قدر الله ومن العبث مخالفة القدر.. وهؤلاء اليوم لهم أشياع يؤيدون تصوراتهم الانهزامية، التي لا تنبع إلا من الخيانة للأمة والإسلام، وكيف لا يهرول الأمريكان لأمثالهم؛ وهم يرون فيهم سبيلاً للسيطرة على مجتمعات الشرق، وبسط نفوذهم واستخدامهم كعقبة في وجه الإسلام السياسي.؟!

يقول د- عبد الوهاب المسيري: (ومما له دلالته أن العالم الغربي الذي يحارب الإسلام، يشجع الحركات الصوفية، ومن أكثر الكتب انتشاراً الآن في الغرب، مؤلفات محيي الدين بن عربي، وأشعار جلال الدين الرومي، وقد أوصت لجنة الكونجرس الخاصة بالحريات الدينية، بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية، فالزهد في الدنيا في الدنيا والانصراف عنها وعن عالم السياسة، يضعف ولا شك صلابة مقاومة الاستعمار الغربي...)

لذلك سعت الولايات المتحدة بشدة، إلى تشجيع ودعم الصوفية، باعتبارها في رؤيتها، واحدة من أهم وسائل التصدي للجماعات الإسلامية، كل ذلك بناء على توصيات وتقارير العديد من المراكز البحثية، ودراسات العديد من الخبراء الأمريكيين.

وتقول الكاتبة (فارينا علم) ـ وهي تمثل شريحة من الصوفية الموجودة في الغرب: (إن الروحانية الإسلامية ـ الصوفية ـ تعتبر الجزء المكمل لحياة المسلم الدينية، وقد قدم أولياء وشيوخ الصوفية، نظرة منهجية لمعرفة الله تستند على تلاوة الابتهالات، والتدرب على تطوير شخصية ورعة قويمة، بغية إذلال الأنا وتكريس النفس لخدمة المجتمع، ومن الممكن أن تصبح الصوفية اليوم ـ بتركيزها على القيم الإسلامية المشتركة، ووضع الأهداف السامية نصب عينيها ـ بمثابة قوة كبيرة مضادة للإسلام السياسي المجاهد)

بل يعتبرونها أحد الأسلحة في حربهم ضد الأصولية الإسلامية ومذاهب الإسلام السياسي.. ففي تقرير نشرته مجلة «يو إس نيوز آند وورلد ريبورت» الأمريكية بعنوان (عقول وقلوب ودولارات) نشر عام (2005م) يقول في إحدى فقراته: (يعتقد الاستراتيجيون الأمريكيون بشكل متزايد، أن الحركة الصوفية بأفرعها العالمية، قد تكون واحداً من أفضل الأسلحة، وبينما لا يستطيع الرسميون الأمريكيون أن يُقِرُّوا الصوفية علناً، بسبب فصل الدين عن الدولة في الدستور الأمريكي، فإنهم يدفعون علناً باتجاه تعزيز العلاقة مع الحركة الصوفية، ومن بين البنود المقترحة هنا: استخدام المعونة الأمريكية لترميم المزارات الصوفية في الخارج، والحفاظ على مخطوطاتها الكلاسيكية التي تعود إلى القرون الوسطى وترجمتها، ودفع الحكومات لتشجيع نهضة صوفية في بلادها)

يقول ستيفن شوارتز وهو يوجه الخطاب إلى إدارة حكومته الأمريكية: "من الواضح جدا أن على الأمريكيين أن يتعلموا المزيد عن الصوفية، وأن يتعاملوا مع

شيوخها ومريديها، وأن يتعرفوا على ميولها الأساسية، يجب على أعضاء السلك الدبلوماسي الأمريكي في المدن الإسلامية من بريشتينا في كوسوفا إلى كشغار في غرب الصين، ومن فاس في المغرب إلى عاصمة إندونيسيا جاكرتا، أن يضعوا الصوفيين المحليين على قائمة زياراتهم الدورية، يجب أن ينتهز الطلاب الأمريكيون ورجال الأعمال وعمال الإغاثة والسائحون فرص التعرف على الصوفيين. الأهم من ذلك أن أي شخص داخل أو خارج الحكومة، يشغل موقعا يسمح له بالتأثير على مناقشة ورسم سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، يمكنه أن يستفيد من فهم هذا التقليد الفطري من التسامح الإسلامي"

كما نشرت مؤسسة "راند" الشهيرة منذ أكثر من سنتين وثيقة عنوانها "الإسلام المدني الديمقراطي.. من يشارك فيه؟ وما هي مصادره واستراتيجياته؟"، ومن بين توصيات دراسة الوثيقة، توجيه قدر أكبر من الانتباه إلى الإسلام الصوفي، وذلك من خلال تشجيع شعبية الصوفية وقبولها، عبر تشجيع البلدان ذات التقاليد الصوفية القوية على التركيز على ذلك الجانب من تاريخها وعلى إدخاله ضمن مناهجها المدرسية.

وحين دخلت القوات الأمريكية والبريطانية إلى البلاد الأفغانية، كان أول ما قاموا به أنهم فتحوا المزارات والأضرحة، وسمحوا للموالد أن تقام وروجوا لها، يقول أحد شيوخ الطرق واسمه (صوفي محمد) وهو في الستين من عمره لوكالة (رويترز): (إن حركة طالبان المتعصبة أغلقت المزارات وأوقفت الاحتفالات ومنعتنا من حلقات الذكر والإنشاد طوال فترة

حكمها، رغم أنها لم تتوقف حتى في وجود الحكم الشيوعي والاحتلال الروسي! وأنا سعيد جداً بسقوط تلك الحركة المتعصبة، وأمريكا سمحت لنا بممارسة طقوسنا وإقامة موالدنا، ونحن نشكر لها ذلك وبشدة) هكذا قال وهكذا فعلت أمريكا: فتحت الأضرحة وأقامت الموالد لإحياء البدعة ومحاربة السنة ولتشويه الإسلام.

تحالفات ومصالح

ويلحظ المتابع للحركة الصوفية، النشاط المتسارع بعد الحادي عشر من سبتمبر، بافتتاح المدارس والأكاديميات والأربطة لاستقبال المريدين، والقيام بالمؤتمرات الدولية حول الصوفية والتصوف، ودعم وسائل النقل الثقافي:

ففي 28/ 3/ 2001م عقد في مدينة بامبرج الألمانية المؤتمر الثامن والعشرين للمستشرقين الألمان، ومن ضمن البحوث التي قدمت في المؤتمر بحث بعنوان «الأخوة الصوفية كحركات اجتماعية»، و (الحركة النقشبندية في داغستان) و(التيجانية) في غرب أفريقيا، وصورة الموالد الشعبية في مصر.

وفي عام (2002م) تم افتتاح أقسام لتعليم اللغات (الإنجليزية والفرنسية والإسبانية) في المعاهد الشرعية التابعة للشيخ (أحمد كفتارو) النقشبندي، وهذه الأقسام تستقبل الطلبة الناطقين بهذه اللغات أو تعلم الطلبة العرب هذه اللغات كي يقوموا بالتدريس في هذه الدول بعد ذلك.

[1] - المرجع السابق

وفي 12/ 7/ 2003م نظم المركز الثقافي الأوروبي البلغاري ندوة حول أدب التصوف في الإسلام.

وفي أغسطس عام (2003م) صدر العدد الأول من المجلة المنعوتة: بـ (مجلة البحوث والدراسات الصوفية) وهي من مطبوعات جمعية العشيرة المحمدية بمصر وتقع في حوالي (600) صفحة، وتصدر عن المركز العلمي الصوفي الذي يهدف إلى (إحياء التصوف في الأمة، ونشره على كافة مستوياتها، وبين كل فئاتها، وفي مختلف أوجه أنشطتها)!

وفي عام (2003م) شهدت مدينة (الإسكندرية) في الفترة من (18 ـ 21) إبريل المؤتمر العالمي للطريقة الشاذلية بمدينة الإسكندرية، وقد انعقدت جلسات المؤتمر بمكتبة الإسكندرية بالتعاون مع (منظمة اليونسكو) و (المركز الوطني الفرنسي للبحوث والدراسات العلمية) و(المعهد الفرنسي لآثار الشرقية) و(الوزارة الفرنسية للبحث العلمي) و(وزارة الخارجية الفرنسية) و(دار العلوم الإنسانية بفرنسا) وأخيراً (وزارة السياحة المصرية)

وفي عام (2004م) أقيمت على مدى عشرين يوماً محاضرات عن الحلاج وابن عربي وابن الفارض في الدانمارك.

وفي سبتمبر من عام (2004م) تم افتتاح الأكاديمية الصوفية بمصر.

وفي 9/ 1/ 2004م أعلن في العراق عن تشكيل «الأمانة العليا للإفتاء والتدريس والبحوث والتصوف الإسلامي» التي من أهدافها «إنشاء المدارس الدينية ودعم الطرق الصوفية»

وفي (10/ 9/ 2004م) أقيم مؤتمر هو اللقاء الأول من: (لقاءات سيدي شيكر العالمية للمنتسبين إلى التصوف) تحت الرعاية السامية للملك محمد السادس)

يقول الدكتور عمار حسن: «وفي الفترة الأخيرة في مصر، ظهر جلياً تقرب الحكومة من المتصوفة وتقرب المتصوفة من الحكومة، بل السعي من الطرفين للتقارب؛ فقد خلقت الظروف الملائمة للتحالف ضد الجماعات الإسلامية أمام الرأي العام، باعتبارها طرحاً دينياً له مكانته عند المصريين؛ بينما هي تحتمي بالنظام ضد ممارسات الجماعات السلفية، التي ترى تحريم رفع القباب على القبور وتحريم الطواف بها وعبادتها، والتي تعيش الجماعات الصوفية على بثها بين الناس، والتي لولاها لتقوض ركن ركين من أركان التصوف، ومن هنا فقد حرصت السلطة السياسية على حضور الموالد والاحتفالات الصوفية، بل صار شيخ مشايخ الصوفية (أبو الوفا التفتازاني) ـ توفي ـ عضواً في الحزب الحاكم ورئيساً لعدة لجان داخل جهاز الدولة، بل حرص رئيس الدولة بنفسه، على الصلاة في مساجد الأولياء مثل سيدنا الحسين والسيد البدوي»

وفي ديسمبر من عام (2004م) أقيم في عاصمة مالي (باماكو) المؤتمر العالمي الأول للطرق الصوفية بغرب أفريقيا تحت شعار: (التصوف أصالة وتجدد)

وفي الفاتح من سبتمبر من عام (2005) أقامت الجماهيرية الليبية مؤتمراً دولياً بعنوان: (الطرق الصوفية في أفريقيا/ حاضرها ومستقبلها) ومن أهداف المؤتمر اقتراح الخطط والوسائل والبرامج التي تساعد على تفعيل دوره، أما شعار المؤتمر فهو: (معاً من أجل تفعيل دور الطرق والزوايا الصوفية في أفريقيا)

وفي(5) يوليو (2005م) أقيم مؤتمر (حقيقة الإسلام ودوره في المجتمع المعاصر) الذي بدأ أعماله في العاصمة الأردنية (عمان) برعاية العاهل الأردني الملك (عبد الله الثاني) وقد قرر في خطابه فكرة التصوف، واصفاً إياه بالتصوف المعتدل، فقال: (لقد أفتى شيخ الأزهر بأن الفكر الصوفي المعتدل مقبول ما دام يستند إلى الشهادتين؛ ذلك أن الاعتراف بالمذاهب هو اعتراف بمنهجية الإفتاء وتحديد من هو المؤهل لهذه المهمة، مما يؤدي إلى عدم تكفير بعضنا بعضاً، وإغلاق الباب أمام الجاهلين الذين يمارسون أعمال القتل والإرهاب باسم الإسلام والإسلام منها بريء)

إن هذه المؤتمرات المتلاحقة حول التصوف تنبئ أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن الأمة مقبلة على مد صوفي يراد إحياؤه من جديد بعد أن بدأ بالخمود، سواء أكان هذا التحرك ذاتياً من قِبَل الجماعات الصوفية، أم هو بتحريك غربي عربي؛ فالخطر العقائدي لا يزال قائماً.

إنها مخططات واضحة جلية، ودراسات تعي ما تريد وتخطط لما تطرح بخطوات ثابتة، بل توصي مثل هذه الدراسات بألا تقوم الولايات المتحدة بتدريب الأئمة المحليين في المساجد والمراكز الإسلامية لدعم الصوفية بنفسها، بل تمول في ذلك

السلطات المحلية، على أن يتم بشكل مواز دعم التعليم العلماني في هذه المنطقة جنباً إلى جنب، مع تقديم منح مالية لترميم ورعاية الأضرحة الصوفية، والعناية بالمخطوطات والتراث الثقافي الصوفي، والخطوة الأكثر أهمية هي تعيين أئمة المساجد وخطبائها وتخصيص مناصب وزارية للمتعاطفين مع الصوفية؛ بحيث يتم إعادة ترتيب الأدمغة التي (أفسدها «الأصوليون» قليلو البضاعة الفقهية). نحن إذن أمام سيناريو يعيد إلى الأذهان الأسلوب السوفييتي القديم الذي اعتمد على احتضان ما اصطُلح على تسميته بـ «إسلام السلطة» في مقابل ممارسات إسلامية تخضع للمراقبة والمتابعة الأمنية تعيش تحت الأرض سميت في ذلك العهد بـ (الإسلام السري).

يقول الباحث الدكتور عامر النجار: (إنه قد يكون مما ساعد على انتشار الطرق الصوفية في مصر انتشاراً عجيباً، واندفاع عشرات الألوف من المصريين للانضمام تحت لواء هذه الطرق هو تشجيع الحكام أنفسهم لحركات الطرق الصوفية، ليشغلوا الشعب المصري عن التفكير في أحوال البلاد، فبدلاً من أن ينشغل الإنسان المصري بالتفكير في ظروفه الاجتماعية والاقتصادية السيئة، وبدلاً من أن يفكر في فقره وبلائه، وبدلاً من أن يفكر في طريقة للخلاص من وضعه السيئ بالثورة على الحاكم؛ فإن الحاكم نفسه يعمل على شغل فكره من خلال تشجيعه إلى الانضمام إلى إحدى الطرق الصوفية، فيجد عالمه وخلاصه في رحاب الطريق؛ وهكذا انشغل المصريون كلهم في هذه الحقبة من الزمن بالطرق الصوفية وتركهم الحكام)

ولْيكنْ معلوماً أن التصوف بطرقه ورجالاته ومريديه وأربطته، لم يعد حالة من الزهد والتعبد الفردي كما بدأ؛ بل صار مؤسسات ضخمة لها امتداد عابر للقارات، بعضها يجتهد في أن يلعب دوراً دينياً وسياسياً واجتماعياً، وبعضها تماهى في الفلكلور، وتم اختزاله إلى ظاهرة احتفالية بعد أن التصقت بثوب التقليدية، وتكلست عن إنتاج أي ممارسات سياسية إيجابية إلا ما تستفيد منه السلطة في تكريس نفسها، وهناك طرق صوفية تواكب الحداثة وتنخرط في العمل العام حتى تتمكن من دفع رموزها إلى قمة الهرم السياسي مثل ما هو الحال في تركيا، ولكنها مع وصولها إلى قمة الهرم السياسي نجدها تفقد مقومات الإسلامية فيها.

جدول المحتويات

مقدمة 2
ليسوا سواء 11
أدعياء لا أولياء 14
أضرحة وأوهام 19
صرخة في آذانهم 25
الخرافة عدونا الحقيقي 28
الخديعة الكبرى 34
وحي الشيطان 41
إلهام أم أوهام؟ 46
الشطحات 52
الحقيقة المشوهة ؟ 58
المصريون والمجاذيب 64
لا تقدسوا شيوخكم ! 71
غرائب صوفية 75
الحقيقة والشريعة 79
رد على افتراء 87
ابن القيم المغضوب عليه؟ 94
رد على اتهام 98
الصوفية القمعية 106
الشيعة والصوفية 109
جريمة صوفية 116
لماذا ينبطحون؟ 120
الصوفية المجاهدة 122
الصوفية والاستعمار 127
الصوفية في المعركة 132
خيانة الدراويش 136
صوفي يجابه الطغاة 140
دستور أخلاق العلماء 144
الأمريكان على الخط 147

تحالفات ومصالح 152